

موقف أعراب الشام من الغزو الصليبي والتتري في القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين

دراسة تاريخية تحليلية

الدكتور عبدالله بن عبدالرحمن الربيعي *

مقدمة :

في الندوة العلمية التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب في القاهرة عام ١٤١٨هـ، طرحت تساؤلاً أمام المؤرخين حول ضرورة إبراز دور القبائل العربية في مجريات التاريخ الإسلامي . فبعد سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م ، اعتمدت الدولة العباسية في عصرها الأول على العنصر الفارسي ، وفي عصرها الثاني ساد العنصر التركي ؛ وقد أدى ذلك إلى تهميش العنصر العربي ، الذي فضل الانزواء في الصحراء ، يرقب الأوضاع ، ويتدخل - كلما سنحت له الفرصة - في صد الغزاة ، كما حدث في القرنين السادس والسابع الهجريين اللذين شهدا صراعاً إسلامياً - صليبياً ومغولياً . أليس من حق هذه الفئة التي ألجأتها الظروف السياسية إلى الصحراء محافظة على تقاليدها ، وجملتها ، وأنفتها أن تلقى اهتماماً من الباحثين لتجلية مواقفها ضد الغزاة ؟

- * ليسانس في التاريخ العام من قسم التاريخ والحضارة في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام بالرياض ، ١٤٠٠هـ .
- ماجستير في التاريخ الوسيط من القسم نفسه ، ١٤٠٥هـ .
- دكتوراه في العلاقات الحضارية من جامعة السوربون عام ١٩٨٩م .
- يعمل الآن أستاذ العلاقات الحضارية المشارك في قسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

وللإجابة على التساؤل بدأت أبحث - على وجل - في متون المصادر والمراجع والخوف يعتريني من قلة المادة العلمية عن هذا الموضوع. ولكنني أدركت أن إهمال هذه الفئة كان من جانب المؤرخين المحدثين لا المتقدمين.

الإطار الزمني :

ينحصر البحث زمنيا في الفترة الممتدة بين عام ٤٩٠هـ/ ١٠٩٩م ، وعام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م ، أي خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، وهما القرنان اللذان شهدا الوجود الصليبي في الشام وفلسطين ، وكذا الهجمات المغولية على المنطقة . وتشمل الدراسة من الناحية السياسية الفترات الزمنية والأيوبية والمملوكية إلى فتح عكا على يد السلطان الأشرف خليل عام ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

الإطار المكاني :

يقتصر البحث مكانيا على بوادي "الشام" ، الذي يعني باصطلاح الجغرافيين المسلمين المنطقة الواقعة بين نهر الفرات شرقا وساحل البحر الأبيض المتوسط غربا ، ومن خليج العقبة جنوبا إلى جبال طوروس شمالاً : فقد قال ابن حوقل : " وأما الشام فإن غربيه بحر الروم [الأبيض المتوسط] ، وشرقيه البادية من أيلة^(١) إلى الفرات ثم من الفرات إلى حد الروم ، وشماليتها بلاد الروم وجنوبيه مصر وتيه بني إسرائيل ، ورفع^(٢) آخر حدوده مما يلي مصر"^(٣). وعد ياقوت الحموي من مدنه حلب ودمشق والقدس ، و أنطاكية وعسقلان،

(١) أيلة ميناء على خليج العقبة ، عند التقاء الحدود الأردنية المصرية. Larousse, T. 12, p. 4948

(٢) تيه بني إسرائيل، هو الموضع الذي ضل فيه بنو إسرائيل ، ويقع بين أيلة ومصر ، ويغلب على أرضه الرمال. يحده الجفار شمال شرق، وجبل طور سيناء جنوب غرب، والقدس شمال شرق. (ياقوت الحموي، معجم البلدان،

ج٢، ص٦٩)، وعن قصة بني إسرائيل في التيه، انظر: محمد بيومي مهران، بلاد الشام، ص٢٣٥-٢٣٩ .

أما رفع ، فهي بلد بين عسقلان والداروم ، أول الصحراء جهة مصر .. (ياقوت الحموي، المصدر السابق ،

ج٣، ص٥٤)

(٣) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ج١، ص١٦٥

وأجناده "أقاليمه" خمسة : قنسرين^(١)، ودمشق، والأردن، وفلسطين، وحمص^(٢). وبناء على هذا المفهوم لا يدخل في دراستنا عرب مصر ولا العراق إلا إذا تطلب ذلك السياق. أما الإطار الموضوعي فيشتمل على موقف عرب الصحراء في الشام وفلسطين من الوجود الصليبي في هذه المنطقة ، ولن يتطرق البحث إلى الأسر العربية التي حكمت في الحواضر الشامية مثل بني منقذ في شيزر، وبني عقيل في جعبر، وبني عمار في طرابلس إلا ما جاء عرضاً.

منهج الباحث :

اتبعت في بحثي هذا المنهج التاريخي التحليلي ، الذي يعتمد على تحليل النصوص، وتوظيفها منطقاً ومفهوماً دون تحميل النص مالا يحتمل، ولم أورد من النصوص إلا ما كان ضرورة للتوضيح أو لإضافة ذات بال، وقمت بتعريف ما ورد من أعلام ، من أمكنة وشخصيات وقبائل ، تحتاج إلى تعريف ، قدر الإمكان.

الفصل الأول : الأعراب : المكان، والسكان.

أطلق على عرب الصحراء، في فترة البحث مصطلحات مثل "العرب"، و"الأعراب"، و"العربان" و"البدو" وكلها مصطلحات قصدت بها المصادر التاريخية "البدو الرحل من

(١) - أنطاكية : مدينة جنوب تركيا على البحر الأبيض المتوسط، أسسها سلوقس نيكاتور عام ٣٠٧ ق.م. ، ثم اتخذها أنتيوخس الأول (٢٨٠-٢٦٦ ق.م) عاصمة للدولة السلوقية . واستولى عليها الرومان عام ٦٤ ق.م . اتخذها النصارى قاعدة دينية من قبل (القديس) بولس ثم بطرس، فتحها المسلمون عام ٦٣٦م، ثم استردها البيزنطيون ، وفي عام ١٠٨٤م فتحها السلاجقة ، ثم احتلها الصليبيون عام ١٠٩٨م. وتمكن السلطان الملوكي بيبرس من استردادها عام ١٢٦٨م . انظر: Larousse, T. 1, p. 430

- عسقلان تقع على الساحل الفلسطيني بين غزة وبيت جبرين. (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٤ ص١٢٢).

- قنسرين وهي الجابية من بلاد الجيدور من عمل الجولان قريبة من مرج الصفر. (الحميري، الروض المعطار، ص٤٧٣).

(٢) ياقوت، المصدر السابق ، ج٣، ص٣١٢. ولزيد من الاطلاع ينظر : نقولا زيادة . جغرافية الشام عند جغرافيي القرن الرابع الهجري (أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام سنة ١٩٧٤م، ص١٣٩-١٧٩) ، الدار المتحدة ، بيروت، ١٩٧٤م.

العرب". أما من حيث الأصل اللغوي فقد فصله ابن منظور ، فقال : "ورجل أعرابي بالألف إذا كان بدوياً صاحب نجعة وانتواء وارتباد للكلاً وتتبع لمساقط الغيث سواء كان من العرب أو من مواليهم ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب . فمن نزل البادية أو جاور البادين وظعن بظعنهم وانتوى بانتوائهم فهم أعراب. ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب وإن لم يكونوا فصحاء . وقال: والأعراب ساكنو البادية من العرب الذين لا يقيمون في الأمصار ولا يدخلونها إلا للحاجة. ويجوز أن يقال رجل عَرَبَانِيّ اللسان وهم - كما ورد في لسان العرب - كل من نزل البادية أو جاور البادين وتشبه بهم فهو أعرابي، والأعاريب هو البدوي وجمعه أعراب وأعاريب^(١). أما مؤرخو هذه الحقبة ، فكانوا يعبرون عن عرب الصحراء بـ"البدو" ، أو "عرب الإسلام" كما ورد في السيرة اليوسفية لابن شداد^(٢) ، بل إن صلاح الدين الأيوبي كان يسميهم "العربان" وقد ورد هذا الوصف في أكثر من مصدر كما سنرى لاحقاً.

ويقسم ابن فضل الله العمري العرب إلى حاضرة وبادية ، ويصف دورهم الرسمي عندما يكون ثمة دولة تضبطهم فيقول: "مضارب أخبيتهم ومساكنهم على افتراق فرقهم، واختلاف طوائفهم، وأشتات قبائلهم من أطراف العراق إلى آخر المغرب دون من في اليمن وخراسان... ومنهم نزال حول الحاضرة، وذوو توغل في البادية . وهم أسوار المدن، وحفظة الطرق، ولم يزل منهم أئمة للطلائع، وجناح للجيوش . ومنهم بمالكننا - مصر والشام - حفظة الدروب ، والقومة بخيل البريد، والحملة للسياف في غالب المملكة . ولم تزل الملوك تهش لوفادتهم ، وتهب لهم جزائل الأموال ، وتقطعهم جل البلاد"^(٣).

وأورد البشاري في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" وصفاً جميلاً لبادية

(١) ابن منظور، لسان العرب ج ١، ص ٥٨٦-٥٨٨ .

(٢) ابن شداد ، السيرة اليوسفية ، ص ٢٧٩ ، ٣٢٢ .

(٣) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ٧٠ .

الشام أقتطف منه ما يتطلبه المقام: "اعلم أن بين أقاليم العرب ، غير المغرب ، بادية ذات مياه وغدران وآبار وعيون وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفية الطرق طيبة الهواء ردية الماء ... إنها بادية واسعة كثيرة العرب فيها نبت يقال له الغث ... يتقوتون به ويكثرون أكل لحم اليربوع والحيات ويقطعون الطريق ويؤون الغرب ويهدون الضال ويخفرون القوافل...وتخوم هذه البادية تأخذ من ويلة [أيلة] على مدائن قوم لوط وتصعد إلى مآب ثم على تخوم عمان وأذرعات ورساتيق دمشق وتدمر وسلمية وأطراف حمص إلى بالس ثم ترجع إلى الفرات وتعطف على الرقة والرجبة والدالية إلى هيت والأنبار"^(١).

وقد حلل ابن خلدون - اجتماعياً - تفضيل البدوي السكنى في الصحراء على المكث في المدن ، فقال: إن ذلك عائد إلى أن البدوي : "لم يكن دخله كثيراً ساكناً بمكان

(١) البشاري المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٤ - ٢٥ .

و مدائن قوم لوط هي إقليم مؤاب شمال الحسى ، نسبة إلى مؤاب بن لوط عليه السلام. لمعرفة المزيد عن التاريخ القديم لهذه المنطقة . انظر : (محمد بيومي مهران، المرجع السابق، ص ٢٢١-٢٢٤).

- أذرعات بين البلقاء وعمان. ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٠.

- سلمية من أعمال حمص ناحية البرية . ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج ٣، ص ٢٤٩ .

- تدمر موضع في بركة الشام . تقع وسط المسافة بين حلب ودمشق، والرقة والرجبة ، وسميت بتدمر بنت حسان بن أذينة وهي التي بنتها. كانت مصيفاً للملكة الزباء. الحميري، المصدر السابق، ص ١٣١.

- بالس وتسمى بايس ، شرقي حلب ، قرب مدينة مسكنة . ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج ٢/٣، ص ٧٦٤.

- الرقة مدينة على جانب الفرات الشرقي ، فتحها عياض بن غنم سنة ١٧هـ . (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٥٨-٥٩)

- الرجبة من أعمال دمشق وتعرف برجة دمشق (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٣)

- الدالية . بلد على ضفة الفرات الغربية ، بين عانة والرجبة. (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٣٢).

- هيت بلدة على الفرات فوق الأنبار مجاورة للبرية . (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٢٤).

- الأنبار ، في العراق . فتحها خالد بن الوليد سنة ١٢هـ ، (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٥٨).

كاسد الأسواق في الأعمال التي هي سبب الكسب فلم يتأثل كسبا ولا مالا فيتعذر عليه من أجل ذلك سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته وهو في بدوه يسد خلته بأقل الأعمال لأنه قليل عوائد الترف في معاشه وسائر مؤنثته^(١).

وقد أغفل ابن خلدون الدوافع السياسية التي ألجأت العنصر العربي إلى الصحراء ، ويبدو أنه قد اتخذ منهم موقفاً ، فقد اتهم العرب في مقدمته بأنهم قوم جبلوا على خراب الأمصار ويستشهد ببني هلال وبني سليم^(٢) عندما جازوا إلى أفريقية والمغرب مستهل القرن الخامس وظلوا فيها ثلاثمائة وخمسين سنة فقد لحق الخراب في تلك النواحي بعد أن كانت عامرة ما بين السودان والبحر الرومي تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء شواهد القرى والمدن^(٣) ولعل ما صنعه العرب في الأندلس من حضارة دامت ثمانية قرون ، ما يجعل رأي ابن خلدون خاصاً به.

استقطبت بادية الشام ، وبراري فلسطين ، قبائل عربية هاجرت إليها قبل الإسلام لأسباب اقتصادية أو سياسية ، وجاءت مع الفتح الإسلامي أعداد غفيرة من القحطانيين والعدنانيين ، استوطنت البوادي ، وسيطرت على طرق التجارة البرية ، وحركة البريد . وكانت هذه القبائل تضرب خيامها حيث المراعي في فصلي الشتاء والربيع ، فإذا جاء الصيف بحرّه وجفافه زحفت القبائل إلى مصادر الماء من أنهار وبحيرات ، وغالباً ما تكون حول المدن ، ويحدث أحياناً صراع حول الماء . أما أهل الريف فكانوا عرضة لغارات من بدو الصحراء إذا شح المطر ، وكانوا يدرأون ذلك بدفع ضريبة الحماية للعشيرة التي لها نفوذ . أو يلجأ الريفيون إلى السلطة المركزية إذا كانت قوية ، مما يعني نشوء صراع بين القبائل

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٣٦٥ .

(٢) يعود أصل بني هلال إلى عامر بن صعصعة من قيس عيلان. وبني سليم من قيس ، ومساكنهم ببرقة (ابن

فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ١٧٩ ، ١٨٥)

(٣) ابن خلدون، نفسه، ص ١٥٠ .

وبين السلاطين، ينتهي غالباً بخضوع أمراء العشائر للسلطان مقابل مخصصات مالية تدفع لهم كل عام تغنيهم عن الغزو . وكان السلاطين يتعاملون مع شيوخ العشائر ، إذ يعد الشيخ أمام السلطان المسؤول عما يحدث من أفراد عشيرته ، وهو الذي يقودها إذا دعا السلطان إلى الجهاد ، ويعين الشيخ وراثياً بمرسوم سلطاني. ويمنح رتباً وأوسمة وإقطاعات، وألقاباً مثل "ملك العرب" و "أمير العرب" و"الأمير السامي" و "أمير الصحراء"^(١) .

وفي ميادين الوغى ، كان عرب البادية عنصر تفوق تلجأ إليهم الأطراف المحلية المتصارعة فيما بينها ، وأسهموا في صد الغزاة الصليبيين والتتر . ولأهميتهم حرصت الدول المتعاقبة في مصر والشام على ضمان ولائهم: فقد كان العبيديون يستميلون أمراءهم بالمال . وكان الزنكيون والأيوبيون يغدقون على أمراء العرب بالهبات والإقطاعات ، و ألقاب الإمارة . أما المالكي فقد اعتبروا لقب "أمير العرب" رتبة عسكرية عالية تمنح لشيخ قبيلة كبيرة ذات نفوذ، تمكنه من بسط سلطته على الأعراب في منطقة واسعة ، ويتبع هذا اللقب إقطاعات وهدايا وأعطيات، يتسلمها أمير العرب من السلطان ليوزعها على القبائل الخاضعة له كسباً لتأييدها. وقد اهتمت المراسم السلطانية بتنظيم الاتصال بين السلطة المركزية وشيوخ العرب ، من خلال منصب "المهمندار" ومعناه القائم بمهمة الضيافة ، ويشترط فيمن يتولاه أن يلم بالقبائل وأنسابها وعلاقات بعضها ببعض ، و هو الذي يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة، ويرتب لقاءاتهم مع السلطان^(٢) .

ورغم شظف العيش إلا أن العربي البدوي يفضل بيئة الصحراء النقية ، على حياة المدينة الموبوءة في نظره . لقد مر أسامة بن منقذ بجماعة من قبيلة طيء^(٣) هربت من وباء

(١) فرحان أحمد سعيد، آل ربيعة الطائيون، ص ٨٣-٨٤ .

(٢) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١٦-١٧ .

(٣) تنسب طيئ إلى طيئ بن أدد، من بني يشجب، من كهلان . جاهلي قيل إن اسمه جلهمة، وطيئ لقبه . كانت منازل بنيها في اليمن، ثم انتقلوا إلى جبلي أجا وشمز، ومنهم بطون كثيرة في شمالي الحجاز، وببادتي العراق والشام . ينضوي معظمها تحت اسم "قبائل شمز" . (خير الدين الزركلي، الأعلام، ج ٣، ص ٢٣٤) .

دمشق إلى برية شمال أيلة ، فتعرضوا إلى مجاعة مدة شهرين ، حتى اضطروا إلى أكل الجيف ، ويلخص أسامة حالهم بقوله : "ورأيت بهم من الضر أمراً عظيماً ؛ قد يبست جلودهم على عظامهم "وعندما سألتهم لماذا لم يتجهوا إلى دمشق قالوا: "خفنا الوباء ! ولا وباء - كما يقول أسامة - أعظم مما كانوا فيه" (١).

ولارتباطه بالصحراء ، فإن البدوي يعرف دروبها الآمنة ، ومتاهاتها ، وآبارها ، وأوديتها ، وجبالها ، ولا بد لمن يجتاز الطريق البري من مصر إلى الشام من الاستعانة بدليل ثقة مثل "جربة" صاحب أسامة بن منقذ ، الذي كان فطنا نبيا ، أنقذ أسامة من موقف حرج ، عندما نددت عنه جماله وكان فيها "جربة" وخيم الليل فلم يبصر أسامة منها شيئاً ، فأمر غلماناه بالبحث عنها ، فأدرك جربة أن أسامة يبحث عنه ورفاقه ، فأخذ يقدح ناراً من فوق جملة . يقول أسامة: "فقصدنا النار حتى لحقناهم . ولولا لطف الله وما ألهمه ذلك الرجل كنا هلكنا" (٢).

ولا يكتفي مجتازو الصحراء بالأدلاء ، بل ينبغي أن يحتموا بقبيلة ذات نفوذ ؛ وقد ينجو المسافرون من قبيلة بسبب لجوئهم إلى قبيلة أخرى ، فقد مر أسامة بن منقذ بوادي موسى (٣) بعدما نجا من معركة مع الإفرنج ، وقد ضاقت به وبمن معه الحال ، وكانوا "بغير زاد للرجال ، ولا علف للخيول" وقد منعهم بنو فهيد (٤) من الورد على آبارهم ، سعيًا إلى استشارتهم والاشتباك بهم . فأرسل أسامة رسولا إلى صديقه منصور بن دغفل أمير بني ربيعة (٥) ،

(١) ابن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ٣٥ .

(٢) ابن منقذ ، المصدر نفسه ، ص ٣٥-٣٦ .

(٣) يقع وادي موسى جنوب البتراء في الأردن . (الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي ، ج ٤ ، ص ٣٥٥).

(٤) ذكر ابن فضل الله العمري أن بني فهيد قوم من زبيد . جاوردوا بني سهيل في الداروم ، واختلطوا بهم . ابن فضل

الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٠٨ .

(٥) هو أخ مفرج بن دغفل بن جراح مؤسس إمارة بني ربيعة في البلقاء وحول القدس متخذاً من الرملة قاعدة له ،

ومفرج هو والد حجي الذي قتل في معركة مع الفرنج سنة ٥٨٦ هـ . (خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٥ ،

ص ١٤٨ ؛ انظر : حاشية ١٧٠) .

يحتمي به ، فجاءه على عجل ، واصطحب أسامة وقافلته إلى طريق آمن. يقول أسامة: "فجمعت للأمير منصور ألف دينار مصرية ودفعتها إليه، وعاد . وسرنا حتى وصلنا بلد دمشق بمن سلم من الإفرنج وبني فheid يوم الجمعة خامس ربيع الآخر (٥٤٩هـ/١١٥٤م)"^(١).

ورغم مواقف بعض عرب البادية ، فإن الكرم والوفاء ، والنجدة صفات غالبية فيهم يحدثنا أسامة بن منقذ أن مسلماً من مصر أسره الإفرنج ، ووضعوه في جب في بيت جبريل^(٢) ، وطالبوه بفدية ألفي دينار. وبعد سنة أسر الإفرنج بدوياً ، وأنزلوه في الجب نفسه وطالبوه بفدية خمسين ديناراً من أجل فكاهه . فاقترح البدوي على المصري أن يدفع عنه الفدية ، ليخرج من غيابة الجب ويذهب إلى أهل المصري فيأتي بالفدية . فوافق المصري أن تضاف فدية البدوي على فديته، فأطلق الإفرنج البدوي. ومضى شهران ولم يحضر البدوي، فيئس المصري منه . وفي ليلة من الليالي ، فوجئ المصري بالبدوي يظهر عليه من نفق ، بدأ بحفره من أشهر ، فحرره ، وأعادته إلى أهله دون فداء^(٣) .

وإذا قويت الدولة المركزية ، أصبح دور القبيلة في حماية القوافل رسمياً . وكان نور الدين زنكي يدفع أموالاً لعرب الصحراء مقابل قيامهم بحماية المسافرين والقوافل^(٤) . وفي عهد المماليك كانت الإقطاعات تمنح لأمرأ مقابل ضبط أتباعهم ، والمحافظة على أمن الطريق^(٥) . ويمتدح ابن فضل الله العمري دور عرب الصحراء في حفظ السابلة " وأحاطوا بالبر من جميع أقطاره ... وصانوه من كل طارق يتطرق، وسارق يتسلل أو يتسرق ، فلا تبصر إلا مرسى خيام... قد اتخذت من الشعر الأسود"^(٦).

(١) ابن منقذ، المصدر السابق، ص ٥٠-٥١ .

(٢) بيت جبريل ، بلد بين القدس وغزة ، وبينه وبين عسقلان وادي النمل . (ياقوت الحموي ، المصدر السابق ج١ ص ٥١٩).

(٣) ابن منقذ، المصدر السابق، ص ١٠٢-١٠٣ .

(٤) Elisseeff Nour ad-Din, T.III.p.804

(٥) الفلقلشندي، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٣ .

(٦) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١٢٤-١٣٦ .

ولتمتع البدوي بلياقة قتالية قد لا تتوافر للحضري فقد استعانت الأسر الحاكمة في الشام مثل آل منقذ في شيزر^(١) بعناصر من القبائل العربية في حماية مدنهم ، وقد تحدث ابن منقذ في كتابه الاعتبار عن فرسان من بني نمير^(٢) وكلاب^(٣) ، أبلوا بلاء حسنا في الذود عن قلعة شيزر من غارات صليبي أنطاكية^(٤) .

ومن عرب البادية من يتاجر بالخيول الأصيله ، ويطلق عليهم "جلاية الخيل" يبيعونها على ذوي الجاه واليسار ، أو يهدونها إلى السلاطين ، وربما كوفئوا عليها كما يقول ابن فضل الله العمري : "نظير ثمنها عشر مرات وأكثر غير الخلع والرواتب، والعلوفات والأنزال، ورسوم المقامات خارجة عن تثمان الخيول ومسامحات تكتب لهم بالمقررات عن تجارات يتجرون بها مما أخذوه من أثمان الخيول"^(٥).

وأستعرض القبائل التي لها مواقف من الغزو الصليبي والتتري ، مما أشارت إليهم

المصادر التي بين أيدينا:

(أ) بنو ربيعة :

وهم قبيلة قحطانية من طيئ ، تنتسب إلى ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج بن دغفل بن جراح وكانت طيئ قد تمكنت بزعامه آل جراح من الاستيلاء على الرملة^(٦) عام ٣٦٠هـ/٩٧١م ، وأصبحت قوة حسب لها العبيديون ألف حساب ، ويستميلونها

(١) شيزر : قلعة قرب المعرة على نهر العاصي: (ياقوت الحموي ، المصدر السابق ج٣ ص٣٨٣)

(٢) نمير نسبته إلى نمير بن عامر بن صعصعة. منهم طراد بن وهيب النميري ، أمير عرب الجزيرة ، امتهلك الرقة ، وكان شجاعاً . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٣٢٥) .

(٣) كلاب تنسب كلاب إلى كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان من عدنان، كانت منازلهم قرب المدينة ثم انتقل بعضهم إلى الشام ، واستقروا في الجزيرة الفراتية ، وملكوا حلب ، وأول ملك منهم هو صالح ابن مرداس. (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٥، ص٢٢٩) .

(٤) انظر: ابن منقذ، المصدر السابق، ص٥٨ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١ .

(٥) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " دولة المماليك الأولى " ص١٣٦ .

(٦) الرملة وتعرف برملة فلسطين . بناها سليمان بن عبد الملك. (ياقوت الحموي ، المصدر السابق ج٣ ص٦٩) .

بالإقطاعات والأعطيات وتزعمها دغفل بن الجراح ، ثم ابنه مفرج ثم ابنه حسان (ت ٤٣٣هـ / ١٠٤٣م) ، ثم تولت الزعامة عشيرة آل ربيعة في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي . وفد ربيعة على السلطان عماد الدين زنكي صاحب الموصل فأكرمه . وكان له أربعة أبناء فضل ومرا وثابت ودغفل . وفي عهد طغتكين ، أتاكبك دمشق (٤٩٧-٥٢٢هـ / ١١٠٤-١١٢٨م) ^(١) أصبح ربيعة " أمير عرب الشام " . ثم صار لهذه القبيلة شأو كبير في العصر الأيوبي : فقد أمر العادل سيف الدين (٥٩٦-٦١٥هـ / ١١٩٩-١٢١٨م) ^(٢) على العرب حُدَيْثَة بن فضل بن ربيعة . وفي عهد السلطان الأيوبي الملك الكامل (٦١٥-٦٣٥هـ / ١٢١٨-١٢٣٨م) ^(٣) تقاسم الإمارة مانع بن حديثة (ت ٦٣٠هـ) وغنام أبو ظاهر بن غنام . واشتهر منهم في عصر المماليك البحرية : زامل بن علي بن حديثة ، وأخوه أبو بكر بن علي ، وأحمد بن حجي ^(٤) وأبناؤه وإخوته وعيسى ابن مهنا ^(٥)

(١) طغتكين صاحب دمشق . هو سيف الإسلام ظهير الدين ، أتاكبك دمشق (٤٩٧-٥٢٢هـ / ١١٠٣-١١٢٨م) . كان مملوكاً لتتشن بن ألب أرسلان . تولى دمشق بعد أخيه ملكشاه . واستمرت أسرته تحكم دمشق حتى استولى عليها نور الدين زنكي عام ٥٤٩هـ / ١١٥٤م . (حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، ج ٤ ، ص ٦٣) .

(٢) العادل سيف الدين (٥٩٦-٦١٥هـ / ١١٩٩-١٢١٨م) الملك العادل هو محمد بن أيوب بن شاذي أخو صلاح الدين . ولد في دمشق وقيل في بعلبك عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م . ولده أخوه حلب عام ٥٧٩هـ ، ثم الكرك ، ثم تولى سلطنة مصر عام ٥٩٦هـ وضم إليها الشام . توفي بدمشق عام ٦١٥هـ / ١٢١٨م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٦، ص ٤٧) .

(٣) السلطان الأيوبي الملك الكامل (٦١٥-٦٣٥هـ / ١٢١٨-١٢٣٨م) الملك الكامل ، هو محمد بن محمد العادل ابن أيوب . ولد بمصر عام ٥٧٦هـ / ١١٨٠م ، أصبح سلطاناً على مصر والشام بعد وفاة أبيه عام ٦١٥هـ . توفي بدمشق عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٧، ص ٢٨) .

(٤) وأحمد بن حجي هو شهاب الدين، أحمد بن حجي بن بريد ، أمير آل مرا ، في بادية الشام، كان يزعم بأنه من نسل جعفر البرمكي من العباسية أخت هارون الرشيد . توفي في بصرى عام ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م . خير الدين الزركلي، الأعلام، ج ١، ص ١١٠ .

(٥) عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة، شرف الدين الطائي، أمير آل فضل . ملك العرب في بلاد الشام . ولي الإمارة بعد علي بن حديثة بن مانع . توفي سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٥، ص ١٠٩) .

وأولاده وأخوه ، يصفهم ابن فضل الله العمري بأنهم "رؤساء أكابر وسادات العرب ووجوهها ولهم عند السلاطين حرمة كبيرة وصيت عظيم إلى رونق في بيوتهم ومنازلهم"^(١).

وقد انقسمت ربيعة إلى ثلاثة أفخاذ :

الفخذ الأول وهو آل فضل بن ربيعة وهم رأس القبيلة وديارهم من حمص إلى قلعة جعبر^(٢) إلى الرجة وعلى ضفتي الفرات حتى الوشم في نجد جنوباً إلى البصرة شرقاً.^(٣) ، وآل فضل عرب رحل ، ينتقلون ما بين الشام والجزيرة^(٤) وبرة نجد ، ترافقهم مجموعات من قبائل أخرى مثل زبيد وكلب ومذحج ، وهم أكثر عدداً من آل مرا^(٥) .

الفخذ الثاني آل مرا نسبة إلى مرا بن ربيعة ومنازلهم في حوران ومن بلاد الجبيدور والجولان إلى الزرقاء والضليل إلى بصرى^(٦) وإمرتهم في آل أحمد بن حجي "وآل مرا أبطال مناجيد ، ورجال صناديد" كما يقول القلقشندي^(٧) .

الفخذ الثالث : آل علي وهم من آل فضل ، ينتسبون إلى علي بن حديثه بن عصية ابن فضل بن ربيعة وديارهم مرج دمشق وغوطتها وصارت إمرتهم إلى عيسى بن مهنا "

(١) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ٢٤، ٢٧، ١١٧، ١٣٩ - ١٤٠ : القلقشندي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٠-٢١١ .

(٢) قلعة جعبر على الفرات بين بالس والركة قرب صيفين وكانت تسمى دوسر فملكها رجل يسمى جعبر بن مالك . (ياقوت الحموي ، المصدر السابق، ج ٢ ص ١٤٢) .

(٣) القلقشندي ، المصدر السابق ، ج ٤، ص ٢١٠-٢١٢ .

(٤) أفرد المقدسي فصلاً عن "الجزيرة" ساء "إقليم آقور" ، وقال: إنه قسم على بطون العرب: فديار ربيعة وقاعدتها الموصل ومن مدنها الحديثه ورأس العين ، ونصيبين ، وديار مضر وقصبتها الرقة ومن مدنها الرها وسروج، وديار بكر وقصبتها آمد ومن مدنها ميفارقين وحصن كيفا . انظر : (البشاري، المصدر السابق، ص ١٣٦-١٥١)

(٥) ابن تغري بردي ، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٢٢٦ .

(٦) الجبيدور في الجولان ، والضليل ، لعلها الخليل انظر: (ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ص ١٣٨) .

(٧) القلقشندي، المصدر السابق ، ج ٤، ص ٢١٥ .

وبقي جار الفرات - حسب القلقشندي - في تلايب التتر وهم أهل بيت عظيم الشأن مشهور السادات، إلى أموال جمة ونعم ضخمة و مكانة في الدول عليّة" (١) .

(ب) جرم :

جرم وهم من طيئ ثم من بني جرم واسمه ثعلبة بن عمرو بن الغوث بن طيئ ، وجرم امرأة حضنت ثعلبة هذا فغلبت عليه ، ومن جرم هذه نفر مع ثعلبة طيئ وكانوا يدا مع الإفرنج . ولما فتح صلاح الدين غزة انتقلت ثعلبة وطائفة من جرم إلى مصر ، وبقيت طائفة من جرم في غزة والداروم (٢) إلى الخليل ، وتنتشر هذه القبيلة في بلاد غزة والداروم مما يلي الساحل إلى الجبل ، وبلد الخليل (٣) ، ومنها : جرم قضاة ومنهم بنو جشم ، وبنو قدامة ، وبنو عوف ، وجرم بجيلة ، وجرم عاملة ، وجرم طي . وموقع وكان كبيرهم مالك الموقعي مقدماً عند صلاح الدين وأخيه العادل . وكانت الإمرة على عرب غزة لفضل بن حجي عليّة (٤) .

(ج) بنو كلاب :

بنو كلاب وهم عرب أطراف حلب ، كان لهم جولات وصولات في مقاومة الروم " البيزنطيين" وقد غنموا منهم غنائم كثيرة ، يصفهم القلقشندي بأنهم : "عرب غزو ، ورجال حروب ، وأبطال جيوش ، وهم من أشد العرب بأساً ، وأكثرهم ناساً ، وإفراط نكايتهم في الروم صنفت السيرة المعروفة بـ "ذات الهمة والبطال" منسوبة إليهم لما فيها من ملح الحديث ولح الأبطال ولكنهم لا يدينون لأمر يجمع كلمتهم ، ولو انقادوا لأمر واحد لم يبق لأحد من العرب بهم طاقة" (٥) .

(١) القلقشندي، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢١٧ .

(٢) الداروم ، جنوب غزة على طريق مصر ، ليست بعيدة عن شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، فتحها المسلمون عام ٣١ هـ (ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٤) .

(٣) القلقشندي، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢١٨-٢١٩ : المقرئ ، البيان والإعراب ، ص ١٩-٢٠ .

(٤) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٠٧-١٠٨ : القلقشندي، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢١٨-٢١٩ .

(٥) القلقشندي، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٣٧-٢٣٨ .

(د) ثعلبة :

ثعلبة وهي بالشام مما يلي أرض مصر إلى الخروبة^(١) وهم من طيئ وينسبون إلى ثعلبة ابن سلامان بن ثعل بن عامر بن الغوث بن طيئ بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وثعلبة هذه بطن درما وزريق^(٢) .

(هـ) خفاجة :

وهم من بني عقيل ، وينتسبون إلى خفاجة بن عمر بن عقيل بن كعب ، وفدوا على الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م)^(٣) - بعد هزيمة الخليفة العباسي المستنصر بالله الذي عاد من مصر لفتح العراق كما سيمر علينا في حديثنا عن إحياء الخلافة العباسية في مصر- وكان كبيرهم خضر بن بدران بن مقلد بن سليمان بن مهارش العبادي ، فأُنعِمَ الملك الظاهر عليهم ، فكانوا عوناً له على التتر. ومن عبادة وخفاجة قوم بمرج دمشق^(٤) .

(و) جذام :

ومن جذام بنو عقبة ونسبتهم إلى عقبة بن حرام بن جذام وديارهم من الشويك^(٥)

(١) الخروبة حصن قديم ، كان على مقربة من عكا . (ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب : "تحقيق سهيل زكار"، ج ٢، ص ٥٨٩)

(٢) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١٠٦ : المقرئ، البيان والأعراب، ص ١٩

(٣) بيبرس هو بيبرس العلاني البندقداري الصالح، ركن الدولة، الملك الظاهر . ولد بأرض القبيجا سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م . أسر وبيع في سيواس ، ثم نقل إلى حلب ، واشتراه في القاهرة علاء الدين أيدين البندقدار ، فلما حبسه الملك الصالح ، أخذه بيبرس وأعتقه ، وقربه، وفي عهد قطز أصبح أتابك العساكر المصرية . قتل قطز وتولى سلطنة مصر والشام سنة ٥٦٨هـ . توفي عام ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م . (خير الدين

الزركلي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٩٧)

(٤) القلقشندي ، قلائد الجمان، ص ٣٢١

(٥) الشويك قلعة حصينة بين عمان وأيلة قرب الكرك (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٧٠)

إلى حسمى^(١) ، وينتشرون جنوباً حتى شرق الحجاز ، ومنهم عرب الكرك^(٢) ، و بنو زهير عرب الشوبك .

(ز) زيد:

وينتسبون إلى سعد العشيرة من مذحج بن كهلان بن سبأ من العرب العاربة وهم خمس فرق: زيد المرج والغوطة حول دمشق ، وزبيد صرخد^(٣) و حوران ، وزبيد الأحلاف قرب الرجة ، وإمرتهم في نوفل^(٤) .

وثمة قبائل عديدة مثل بني مهدي من عذرة من قضاة من حمير بن سبأ القحطانية ومنازلهم البلقاء ومنهم بنو خالد^(٥) . وهناك بنو صخر وبلادهم حول الكرك ومنهم بنو مرة خفراء القدس ، وبنو شجاع في القدس ، والعناترة ببلد الخليل^(٦) .

إلى جانب هذه العناصر العربية ، عاش في الشام أجناس بشرية أخرى اعتنقت الإسلام ، وذادت عن حياضه^(٧) ، وأهمها:

(١) الأتراك ، وقد هاجروا من إقليم التركستان في القرن الثاني الهجري، فاستقروا في

(١) حسمى ، موضع في بادية الشام ، وهي لجزام ، وتمتد من أيلة إلى صحراء التيه . (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢ ص ٢٥٨-٢٥٩).

(٢) الكرك : قلعة حصينة ، نواحي البلقاء ، بين أيلة وبيت المقدس . تحيط بها أودية . (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٤ ص ٤٥٣).

(٣) صرخد : مدينة قديمة قرب دمشق . بنى قلعتها نور الدين زنكي، وهي مدينة حوران العليا (ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار "دولة المماليك الأولى"، ص ١٨٩).

(٤) القلقشندي، نفسه، ٦٥ : القلقشندي، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤٨ : المقرئ، البيان والإعراب، ص ٦٢ .

(٥) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١٣٩ : القلقشندي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢١-٢٢٢ .

(٦) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢٠-٢٢١ .

ذكر ابن فضل الله العمري أن بني خالد يدعون النسب إلى خالد بن الوليد وقد أجمع أهل العلم بالنسب على انقراض عقبه. ولعلهم من ذوي قرابته من مخزوم (ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١٤٣).

ابن فضل الله العمري، المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٧) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٢٥-٢٩.

إقليم ما وراء النهر وخراسان ، ثم زحفوا شرقا إلى أن تمكنوا من تأسيس دولة السلاجقة عام ٤٢٩هـ/١٠٣٧م ، في إقليم آسيا الصغرى ، وجاهد هؤلاء السلاجقة ضد البيزنطيين ، وعندما انتصروا عليهم في معركة ملازكرد عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م ، بسطوا نفوذهم على الشام ، بما في ذلك القدس.

(٢) التركمان ، وهم قبيلة من الأتراك الرحل ، انتقلوا من تخوم بحر الخزر ونهر جيحون ، إلى شمالي الشام ، ومنذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أصبح اسم "تركمان" يطلق على كل تركي يمارس حرفة الرعي . وأسكنهم عماد الدين زنكي (٥٢١-٥٤١هـ/١١٢٧-١١٤٦م) في حلب ، وفي عهد ابنه نور الدين محمود (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦-١١٧٤م) ، انتشروا في المناطق الحدودية بين المسلمين والإفرنج ، وتزايدت أعدادهم في الجيش المملوكي حتى بلغوا عام ٦٧٤هـ/١٢٧٦م عشرين ألفا من المشاة ، وثلثين ألف فارس.

(٣) الأكراد: قدموا إلى الشام من جبال كردستان وفي الموصل وديار بكر، وهم قوم أشداء ، غالبيتهم بادية ، ارتفع شأنهم بقيام دولة صلاح الدين الأيوبي الذي ينتمي إلى الأكراد. وبعد سقوط بغداد فر كثير منهم من وجه المغول ، وانخرطوا في جيش الأيوبيين ثم المماليك.

الفصل الثاني : موقف الأعراب من الصليبيين قبل العصر الأيوبي

المبحث الأول : مقاومة الصليبيين في الشام

شعر عرب الشام وفلسطين بضعف الدولة العبيدية ، منذ بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فاتفق حسان بن مفرج بن الجراح زعيم طيء^(١) ، وسنان

(١) حسان بن مفرج بن الجراح زعيم طيء هو : حسان بن مفرج بن دغفل بن جراح الطائي، أمير بادية الشام. كانت إقامته في الرملة . خلف أباه على الإمارة سنة ٤٠٤هـ . كانت له حظوة عند العبيديين. مات سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٣٠م. (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٢، ص ١٧٧) .

ابن عليان زعيم كلب^(١)، وصالح بن مرداس زعيم بني كلاب^(٢) على اقتسام الشام، فتكون فلسطين وما حولها لحسان، ودمشق وتوابعها لسنان، وحلب ومناطقها لصالح. فاستولى حسان على الرملة عام ٤١٥هـ / ١٠٢٥م، ونجح صالح في تأسيس الإمارة المرداسية في حلب في ذي القعدة من العام ذاته، واستمرت إلى سنة ٤٧٥هـ / ١٠٨٢م^(٣). وعندما وصلت الحملة الصليبية الأولى إلى الشام، وأقام الصليبيون كياناتهم السياسية في الرها وأنطاكية^(٤)، والقدس، لم تقف الخلافة العباسية في بغداد - رغم ضعفها - صامته أمام النداءات المتكررة من المسلمين من أجل إعلان الجهاد، ففي شهر ربيع الأول ٤٩١هـ "كثر الاستنفار على الإفرنج وتكاثرت الشكايات بكل مكان، ووردت كتب السلطان بركيارق (٤٨٧-٤٩٨هـ / ١٠٩٤-١١٠٤م)^(٥) إلى جميع الأمراء يأمرهم بالخروج" ولكن حدث تناقل فألغيت الفكرة^(٦).

ويبدو أن القوى الإسلامية في الشام، أخذت تخطط لحماية نفسها في الدرجة

(١) وسنان بن عليان زعيم كلب، هو عم رافع بن أبي الليل، الذي ولاه الظاهر العبيدي إمرة بني كلب. (ابن العديم، زبدة الحلب، ج ١، ص ٢٣١، ح ١)

(٢) هو صالح بن مرداس بن إدريس الكلبي، أبو علي. أمير يادية الشام. أول الأمراء المرداسيين في حلب. استولى على الرجة. لقبه الحاكم بأمر الله العبيدي بأسد الدولة. حكم حلب عام ٤١٧هـ، وامتد نفوذه إلى عانة. قتل في الأقحوانة قرب طبرية عام ٤٢٠هـ / ١٠٢٩م. (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٩٦-١٩٧).

(٣) لمزيد من المعلومات عن "الإمارة المرداسية في حلب" انظر: محمد محمد مرسي الشيخ، الإمارات العربية في بلاد الشام، ص ٩١-١٨٧.

(٤) الرها أو Edesse مدينة جنوب تركيا تعرف اليوم بـ"أورفا" Urfa، بناها السليوقيون، واحتلها الرومان، قدسها النصارى منذ منتصف القرن الأول الميلادي، اشتهرت مدرستها اللاهوتية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين Larousse, T. 7, p. 3043

(٥) السلطان بركيارق هو ركن الدولة أبو المظفر ابن ملكشاه (٤٨٧-٤٩٨هـ / ١٠٩٤-١١٠٤م)، عاصر الخليفة العباسي المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢هـ). (حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج ٤، ص ٣٥).

(٦) ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص ٤٣.

الأولى ، وحماية مراعيها ومياهاها ومواشيها في الدرجة الثانية . ففي عهد طغتكين أتابك دمشق برزت قوة ربيعة بن حازم أمير عرب الشام ، ثم ابنه مرا بن ربيعة الذي خاض مع الصليبيين معركة عام ٥١٠ هـ ، انتصر فيها عليهم ..^(١) .

وإذا كان طغتكين قد ركن إلى بني ربيعة في كفاحه ضد الصليبيين ، فإنه كان لا يتهاون مع من يتعاون مع العدو كما حدث لفضل بن ربيعة الذي كان موقفه متذبذباً بين الإفرنج وبين العبيديين في مصر ، فطرده أتابك دمشق من الشام سنة ٥٠١ هـ ، فلجأ إلى صدقة بن مزيد في العراق ، فأكرمه صدقه ووهبه سبعة آلاف دينار ، وهدايا كثيرة . وعندما خرج صدقة على الخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩ هـ / ١١١٨-١١٣٥ م)^(٢) كما سيمر بنا ، اختار فضل صف الخليفة وأنزله الخليفة في دار صدقة ببغداد ، إلا أن فضلا قرر اعتزال الفتنة فأظهر أنه يريد القبض على صدقة وعاد إلى الشام ، حيث مات عام ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م^(٣) .

وبعد وفاة طغتكين ، وقف الأمير مرا بن ربيعة إلى جانب تاج الملوك بوري صاحب دمشق (٥٢٢-٥٢٦ هـ / ١١٢٨-١١٣٢ م)^(٤) ، في صد هجوم للإفرنج على دمشق ، في ذي القعدة من سنة ٥٢٣ هـ ، "وولي كليام دبور مقدمهم وشجاعهم - كما يقول ابن

(١) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١١٧ ؛ أحمد وصفي زكي، عاشر الشام ، ج ١ ، ص ٨٦ .
(٢) المسترشد بالله هو الفضل بن أحمد (المستظهر بالله) ابن المقتدي عبدالله بن محمد أبو منصور . ولد عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م . وبيع بالخلافة بعد وفاة أبيه عام ٥١٢ هـ / ١١١٨ م . انقلب عليه أحد أمرائه وهو السلطان مسعود بن ملكشاه السلجوقي ، واعتقله ، وقام جمع من الباطنية بقتله بإيعاز من السلطان سنجر السلجوقي وذلك عام ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م ، ودفن في مراغة . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٥ ، ص ١٤٧) .

(٣) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، ج ١٠ ، ص ٤٤٣ .

(٤) تاج الملوك بوري (٥٢٢-٥٢٦ هـ / ١١٢٨-١١٣٢ م) تاج الملوك هو بوري بن أيوب بن شاذي بن مروان ، مجد الدين ، أبو سعيد ، أخو السلطان صلاح الدين . ولد عام ٥٥٦ هـ / ١١٦١ م . كان أصغر أولاد أبيه . شارك أخاه صلاح الدين في حصار حلب ، وأصيب بطعنة بركيته ، مات منها قرب حلب عام ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٧٧) .

القلانسي- في فريق من الخيالة منزهين ، وحمل الأتراك والعرب حملة هائلة ، وألحقوا بهم ضرباً بالسيوف ، وطعنأ بالرماح ، ورشقأ بالسهم ، فما كان وجه النهار حتى صاروا على وجه الأرض مصرعين " (١) ، وكليام هو جيوم دو بور Guillaume de Bures سيد طبريا (١١٢٠-١١٤١م) (٢) . ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن القوى العربية البرية، ذات نجدة ، تهب إلى حماية المدن ، عندما يجدون من أصحابها احتراماً ووفاء ، ولكن عندما تسوء العلاقة ، تسود أزمة ثقة بين الطرفين ، فبعد أن مات تاج الملوك يوم الإثنين ٢١ رجب ٥٢٦ هـ ، وخلفه ابنه شمس الملوك أبو الفتح إسماعيل ساءت العلاقة بينه وبين مرا بن ربيعة ، وتطور الأمر إلى حبس الأمير مرا في رجب سنة ٥٢٧ هـ ، وظل محبوساً حتى قتل (٣) .

دييس بن صدقة والإفرنج :

بالنظر إلى ارتباط القبائل العراقية والشامية برباط العصبية والأحلاف ، فإن حركة القبائل كانت حرة بين دجلة والفرات ، وبلاد الشام ، ولدينا مثل على زعيم عربي لقبيلة عراقية، أجبره طموحه السياسي إلى الطمع بحلب، ولو عبر بوابة التحالف مع الصليبيين، إنه ديبس ابن صدقة بن منصور بن ديبس بن علي بن مزيد من بني أسد (٤)، الذين قطنوا العراق منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، فأسسوا في الحلة الإمارة المزيدية (٥) .

(١) ابن القلاسي ، تاريخ دمشق ، ص ٣٥٧-٣٥٩ .

(٢) تولى جيوم دو بور تدبير مملكة بيت المقدس أثناء أسر بلدوين الثاني عام ١١٢٣م ، وتولى طبريا حتى عام ١١٤١م . Grousset, Histoire des croisades, T, VIII, p.308.

(٣) ابن القلاسي ، نفسه ، ص ٣٧٠-٣٧٥ .

(٤) ولد ديبس بن صدقة بن منصور بن ديبس بن علي بن مزيد الأسدي الناشري ، عام ٤٦٣هـ / ١٠٧١م ، وهو أبو الأعز ، نور الدولة ، صاحب الحلة ، أمير بادية العراق . أقيم أميراً على الحلة عام ٥١٢ هـ . أغتيل عام ٥٢٩ هـ ، ودفن في ماردين . ذكره الحريري في مقاماته باسم: الأسدي ديبس". (خير الدين الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ٣٣٦) .

(٥) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١٥ .

كان أبوه الأمير سيف الدولة صدقة ابن مزيد خاضعاً للسلطان ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م)^(١) ، إلا أنه أخذ يحتاط لنفسه ، ويحصن مواقعه " وعلم أن الحلة لا تحميه فبنى قلعة على تل بالطبيحة ، ثم اشترى من عربيه مكانا على أيام من الكوفة أنفق عليه أربعين ألف دينار ، وهو منزل يتعذر السلوك إليه وعمر الحلة ، وجعل عليها سوراً وخندقاً وأنشأ بساتين وكان الخليفة العباسي المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢هـ / ١٠٩٤-١١١٨م)^(٢) يخاطبه بملك العرب"^(٣) .

ولما وردت من بغداد كتب تدعو الأمراء إلى الخروج إلى جهاد الإفرنج ، كان الأمير صدقة ابن مزيد أول المستجيبين ، غير أن المشروع لم يتم لأسباب تتعلق بظروف الصراع على السلطة في بغداد . وقد دخل صدقة في أتون النزاع الداخلي ، وانتهى الأمر بقتله على يد السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١هـ / ١١٠٤-١١١٧م)^(٤) ، في جمادى الآخرة عام ٥٠١هـ^(٥) .

(١) ولد السلطان ملكشاه عام ٤٤٧هـ . خلف أباه الب أرسلان على السلطنة في بغداد عام ٤٦٥هـ ، وأسند الوزارة إلى نظام الملك . عاصر الخليفين القائم (٤٢٢-٤٦٧هـ) ، وابنه المقتدي (٤٦٧ - ٤٨٧هـ) . مات ملكشاه عام ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م . انظر : (حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥-٣٣) .

(٢) هو أحمد المستظهر بن عبدالله المقتدي بن محمد القائم ، أبو العباس . ذخيرة الدين . ولد عام ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م ، وولي الخلافة العباسية سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م ، الخليفة العباسي أبو العباس أحمد المستظهر . كان ممدوح السيرة ، وباسمه ألف الغزالي كتابه " المستظهري في فضائع الباطنية وفضائل المستظهرية " . في أيامه احتل الصليبيون القدس سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م . مات عام ٥١٢هـ / ١١١٨م . (خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٥٨) .

(٣) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ١٧ ، ص ٢٠٩ .

(٤) السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (٤٩٨-٥١١هـ / ١١٠٤-١١١٧م) . قلده الخليفة المستظهر (٤٨٧-٥١٢هـ) السلطنة في بغداد . كان عادلاً ، مجاهداً . توفي يوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة عام ٥١١هـ . في أصبهان . (حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٤٣-٤٦) .

(٥) ابن الجوزي ، نفسه ، ج ١٧ ، ص ٤٣ ؛ الذهبي ، العبر ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ .

بعد مقتل صدقة ، أسر ابنه دبيس ، ثم لم يلبث أن أطلق ، فخلف أباه على إمرة عرب الحلة ، ولكنه فشل في إقامة جسر من الثقة بينه وبين مراكز القوى في بغداد ، وعندما قام السلطان محمود بن محمد ملكشاه (٥١١-٥٢٥هـ/١١١٧-١١٣١م)^(١) عام ٥١٤هـ ، بمهاجمة الحلة ، ونهبها ، هرب دبيس بن صدقة إلى الأمير شهاب الدين مالك العقيلي^(٢) صاحب قلعة جعبر فأجاره وتصارها^(٣) .

وفي المحرم من عام ٥١٧هـ ، أوقع الخليفة العباسي المسترشد بالله بدبيس بن صدقة هزيمة ففر منه إلى نجد وقصد غزية^(٤) ، فأضافوه وسألهم أن يحالفوه ، فقالوا: " ما يمكننا معاداة الملوك ونحن بطريق مكة وأنت بعيد النسب منا وبنو المنتفق"^(٥) أقرب إليك نسبا ، فمضى إليهم وحالفوه وقصد البصرة في ربيع الأول ٥١٧هـ وكبس مشهد طلحة والزبير فنهب ما هناك ، وقتل خلقاً كثيراً ، وعزم على قطع النخل فصانعه أصحابها عن كل رأس شيئاً معلوماً^(٦) . وما قام به دبيس من أعمال نهب وسلب ، كان رد فعل على معاداة الخليفة له ، وعدم رضاه عنه ، رغم محاولات عديدة بذلها دبيس ، فيمم وجهه إلى الشام ، وأخذ يخطط لاحتلال حلب ، ليقيم بعيداً عن مركز الخلافة في بغداد ، وجره طمعه إلى

(١) هو محمود بن محمد بن ملكشاه . ولاة المستظهر السلطنة بعد موت أبيه عام (٥١١هـ/١١١٧م . عاصر الخليفة المسترشد (٥١٢-٥٢٩هـ) . قاد معارك خاسرة ضد أفراد أسرته ، وضد الخليفة . مات في شوال عام ٥٢٥هـ/١١٣١م في همدان . (حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ، ج٤ ، ص٤٦-٥٢) .

(٢) تولى شهاب الدين مالك بن سالم بن مالك ملك جعبر بعد مقتل أبيه عز الدين علي عام ٥٤٦هـ/ ١١٥١م ، وظل فيها حتى مقتله عام ٥٦٣هـ/١١٦٧م . (ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ج١/٣ ، ص١١٥) .

(٣) ابن القلاسي ، المصدر السابق ، ص٣٢٣ .

(٤) غزية قبيلة من طي ، تقطن على طريق بغداد إلى الحجاز ، وهم بطون ولهم مشايخ منهم مانع بن سليمان الذي وفد إلى القاهرة عام ٦٠٣هـ . انظر : (ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص١٤٦-١٤٨) .

(٥) ينتسب بنو المنتفق إلى المنتفق بن عامر بن عقيل من بني عامر بن صعصعة ، من هوازن ، من بني جرار بن المنتفق . (خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج٧ ، ص٢٩٠) .

(٦) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج١٠ ، ص٦٠٩-٦١٠ ؛ ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج١٧ ، ص٢١٩-٢٢٠ .

التذلل للفرنج ، وتقديم خدماته لهم ، وعندما ملك الإفرنج صور^(١) عام ٥١٨ / ٧ يوليو ١١٢٤م ، قدم عليهم ديبس ، وطرح عليهم التعاون لاحتلال حلب حيث : "إن أهلها شيعة ، وهم يميلون إليه لأجل المذهب" وكان يهدف من ذلك إلى أخذ حلب بمساعدة الصليبيين ووعدهم بأن يكون "نائبا لهم"^(٢) .

وكان بلدوين الثاني Baudouin II ملك بيت المقدس (١١١٨-١١٣١م)^(٣) ، أسيراً في حلب ، لدى صاحبها حسام الدين قمرتش بن إيلغازي (٥١٢-٥٤٨هـ / ١١١٨-١١٥٣م)^(٤) ، الذي أطلقه غرة جمادى الأولى ٥١٨هـ ، بعد أن تعهد الملك بلدوين على تسليم الأثارب وزردنا والجزر وكفر طاب و عزاز^(٥) ، وثمانين ألف دينار قدم منها عشرين ألف دينار وحلف على ذلك وعلى أن ينبذ تحالفه مع ديبس بن صدقة ، الذي غادر الحلة حاملاً ما خف من ممتلكاته على ظهور المطايا ، وكاتب قوماً من أهل حلب ، وأنفذ

(١) صور مدينة تقع جنوب لبنان على البحر الأبيض المتوسط . احتلها الصليبيون سنة ٥١٨هـ (ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٣٣) .

(٢) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٦٢٣-٦٢٤ .

(٣) هو بلدوين دو بورغ . تولى الرها بعد بلدوين الأول ، وأصبح ملكاً على القدس بعد موت بلدوين الأول عام ١١١٨م . تولى أنطاكية بعد موت أميرها بوهيموند الثاني عام ١١٣٠م . مات بلدوين الثاني عام ١١٣١م (Larousse, T.3, p.928) .

(٤) حسام الدين قمرتش بن إيلغازي هو الملك السعيد ، حسام الدين قمرتش ابن نجم الدين إيلغازي بن أرتق ، أحد أمراء الدولة الأرتقية في ماردين . ولد سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م . ولاء أبوه على حلب سنة ٥١٢هـ / ١١١٨م . حكم ماردين بعد أبيه سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م . خلف أخاه سليمان على ميفارقين . مات عام ٥٤٨هـ / ١١٥٣م في ماردين . ابن شداد ، الأعلام الخطيرة ، ج ٢/٣ ، ص ٦٠٧-٦٠٨ .

(٥) - الأثارب قلعة بين حلب وأنطاكية (ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٨٩) .

- زردنا بليدة من نواحي حلب الغربية (ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٣٦) .

- تل الجزر على مسافة بضعة أميال جنوب شرقي الرملة (رنسيما ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٦٧٢) .

- كفرطاب بلدة في صحراء بين المعرة وحلب (ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٧٠) .

- عزاز بليدة لها قلعة شمال حلب . (ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٨) .

لهم جملة دنانير ، وساوهمهم على تسليمها إليه ، إلا أن رئيسها فضائل بن صاعد بن يديع كشف هذه الاتصالات السرية لحسام الدين قمرتاش بن إيلغازي ، فأخذهم وعذبهم وشنق بعضاً منهم وأحرق الباقين ، وصادر أموالهم . وكان المتوسط بين بلدوين وقمرتاش الأمير أبو العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر^(١) ، الذي أرسل إلى حلب أولاده وأولاد إخوته رهائن عن بلدوين . وفكت قيود بلدوين وجلس مع قمرتاش على الأكل والشرب وألبسه قباء ملكياً وقلنسوة من ذهب وخفافا وحذاء وأعيد إليه حصانه وسار إلى شيزر يوم الأربعاء رابع جمادى الآخرة عام ٥١٨ هـ وبقي حتى قدم ابنته وابن جوسلين واثني عشر إفرنجيا رهائن وسلم عشرين ألف دينار مقدمة فأطلق سراحه يوم الجمعة ١٧ رجب ولم يف بما اتفق عليه . وانضم دبيس من خلال الأمير مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر ، إلى جوسلين Jocelin de Courtenay صاحب تل باشر^(٢) وبلدوين ، واتفق معهما على قواعد تعاهدوا عليها منها أن تكون حلب لدبيس وتكون الناس والأموال للإفرنج مع مواضع من حلب لهم ، وخرج دبيس إلى مرج دابق فخرج إليه حسام الدين قمرتاش فكسره . وظل رهائن بني منقذ في قلعة حلب ، ورهائن الإفرنج عند بني منقذ ، ولم تسفر المفاوضات بين قمرتاش وبلدوين عن اتفاق ، فحاصر بلدوين حلب يوم الإثنين ٢٦ شعبان ٥١٨ هـ / ١٦ أكتوبر ١١٢٤ م ، وخرج دبيس وجوسلين من تل باشر ، وقصدا ناحية الوادي وأفسدا القطن والدخن ، وسائر ما كان به وقوم ذلك بمائة ألف دينار ، ورحلا ونزلا مع بلدوين على حلب ، وانضم إليهم الملك سلطان شاه بن رضوان: فنزل بلدوين في الجانب الغربي ، وجوسلين جهة عزاز ، ودبيس وسلطان وعيسى بن سالم بن مالك شرق جوسلين . ونزل ياغي سيان بن

(١) هو سلطان بن علي بن مقلد بن نصر القضاعي الكناني . ولد في طرابلس الشام ، وتعلم في شيزر ، وولي إمرتها ، وفيها توفي سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٣، ص ١١٠) .

(٢) كان جوسلين الأول صاحب تل باشر، قد عينه الملك بلدوين الأول مشرفا على الجليل بعد موت تانكريد

عام ١١١٢ م. Grousset, Histoire des croisades, T, VIII, p. 306.

عبدالجبار بن أرتق صاحب بالس^(١) شرق دبيس ، وكانت خيام الحلفاء ثلاثمائة خيمة منها ٢٠٠ للإفرنج ، و ١٠٠ للمسلمين . وقام الإفرنج بقطع الشجر ونبش القبور ، وكلما أخرجوا جثة قالوا للمسلمين: هذا نبيكم محمد ، هذا عليكم ، وأخذ فرنجي مصحفا من مشهد حول حلب وقال : يا مسلم أبصر كتابكم وثقبه وشده بخيط إلى ذيل برذونه يلوثه بروثه وهو يصفق ويضحك . والمسلمون يصيحون: يادبيس ، يا نحيس^(٢) .

وضاقت الحال على الحلبيين وقرتاش منصرف عنهم فقد مات أخوه سليمان بن ايلغازي صاحب ميافارقين^(٣) في شهر رمضان فसार إلى بلاده ليملكها. فاستنجدوا بأقسنقر البرسقي^(٤) فهب إليهم ، فهرب منه دبيس و الإفرنج وملك حلب في ذي الحجة/ يناير ١١٢٥م^(٥) .
ويعلق المؤرخ الفرنسي جروسية على حرص بلدوين الثاني على التحالف مع دبيس فيقول: إن الملك الصليبي يهدف من وراء ذلك إلى تنصيب أمير عربي على حلب تحت وصايته ، يمكن من خلاله فرض إتاوات على المناطق المجاورة تحمل إلى خزانة مملكة بيت المقدس^(٦) .
وعندما فشل مشروع دبيس في الميدان الشامي ، عاد إلى مسرح العراق ، وصمم على تنقية الأجواء بينه وبين الخليفة بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى ، ففي جمادى

(١) ياغي سيان بن عبدالجبار بن أرتق صاحب بالس ، هو أخو سليمان بن عبدالجبار الذي استنابه ايلغازي على حلب سنة ٥١٤هـ ولقبه بيدر الدولة (ابن العديم ، زبدة الحلب، ص٢٢٤)؛ (ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٥٩٢) .

(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب، ج ٢، ص ٢٢١-٢٢٥ .

(٣) انظر : حاشية ٩٣ ، وميافارقين بين حدود الجزيرة وأرمينية ، شرقي نهر دجلة . (الحميري، المصدر السابق، ص ٥٦٧) .

(٤) أقسنقر البرسقي، سيف الدين، قسيم الدولة، أبو سعيد البرسقي. مولى الأمير برسق ، غلام السلطان طغرل بك. ولاء السلطان محمود إمرة الموصل والرجة، ثم شحنة بغداد. قتله الباطنية يوم الجمعة سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م. (حسن ابراهيم حسن، المرجع السابق ، ج ، ص ٦٧) ؛ (ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٦٣٣) .

(٥) العظمي ، تاريخ حلب ، ص ٣٧٤-٣٧٥ ؛ ابن العديم ، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٢٥-٢٣٠ .

(٦) Grousset, Histoire des croisades, T.III, p. 135-136.

الآخرة ٥٢٢هـ أشيع أن دببساً قاصد ببغداد في عسكر عظيم فانزعج الناس . وأخذ في سنة ٥٢٣هـ يتودد إلى الخليفة ، فبعث إليه قائلاً : إنك إن رضيت عني رددت أضعاف ما نفذ من الأموال ، وأكون مملوكك ، فقال الناس : هذا لا يؤمن ، وباتوا تحت السلاح طول رمضان . هذا ودببس يجمع الأموال ويبيع الغلة على القرى حتى إنه حصل على ما قيل ٥٠٠ ألف دينار ، وأنه دون عشرة آلاف فارس بعد أن وصل بثلاثمائة . ولما سمع دببس بعساكر السلطان تتجه إليه بعث إلى السلطان برسالة وخمسة وخمسين مهراً عربياً وثلاث بغال عليها صناديق الأموال وأعد للسلطان إن أصلح بينه وبين الخليفة ثلاثمائة حصان له وللخليفة مثقلة بالذهب ومائتي ألف دينار ، وإن لم يرض عنه دخل البرية وقد أعد الجمال والماء والدقيق وعندما بلغه بعدم رضا الخليفة عليه خرج من الحلة واختفى . ثم هاجم البصرة ونهبها ومر بالكوفة ثم دخل البرية ^(١) .

وفشلت الوساطة التي بذلها السلطان سنجر بن ملكشاه صاحب خراسان (٥١١-٥٥٢هـ / ١١١٧-١١٥٧م) ^(٢) بين دببس وبين الخليفة المسترشد بالله ، وامتنع الخليفة أن يولي دببساً شيئاً من الأعمال " فلجأ دببس إلى العنف وعاد إلى معقله في الحلة وجمع أنصاره وسار إلى بغداد ليرغم الخليفة على العفو وأهداه هدايا فلم يجبه . فهاجم دببس البصرة ثم دخل البرية ، ولجأ في البداية إلى مرا بن ربيعة ، ولكنه ضل الطريق إلى حلة مكتوم بن حسان بن مسمار أمير قبيلة كلب في منطقة صرخد ^(٣) فهلك أكثر من معه

(١) ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج ١٧ ص ٢٥٠-٢٥٣-٢٥٤ .

(٢) ولد السلطان سنجر معز الدين أبو الحارث ابن ملكشاه ببلاد الجزيرة ، وحكم خراسان وبلاد ما وراء النهر عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٦م . كان كثير الغزو . مات في مرو سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٧م . (حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ٣٤ ، ٩٥) .

(٣) يذكر ابن الأثير أن قلعة صرخد كانت بيد مملوك ، فلما مات أرسلت جاريته إلى دببس تعرض عليه الزواج ، ولكن ناساً من كلب كانوا شرقي غوطة دمشق قبضوا عليه وسلموه إلى تاج الملوك . (ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٦٦٨) .

عطشا ، فأرسل إليه تاج الملوك من أحضره ليلة الإثنين لست خلون من شعبان سنة ٥٢٥هـ وظل مكراً حتى سلمه إلى رسل عماد الدين زنكي^(١) صاحب الموصل يوم الخميس الثامن من ذي القعدة من هذه السنة . ويبدو أن زنكي وجد في ديبس قوة تمكنه من الوصول إلى السلطة في بغداد فأغدق عليه ، وزوده بالمال والسلاح ، بل وتحالف معه ضد الخليفة المسترشد بالله ، الأمر الذي جعل الخليفة يخرج إليهما ويهزمهما^(٢) .

ولا شك أن ديبساً قد حاد عن طريق الصواب في سبيل تحقيق مآربه الشخصية ، فخرج على إمامه الخليفة المسترشد ، وتحالف مع الإفرنج ضد المسلمين ، ولم يكن مذهبياً بدليل أنه عاضد الصليبيين في حصار حلب ، ومارسوا أمامه كل أنواع الإيذاء والإهانة لرموز المسلمين باختلاف مذاهبهم ومشاربهم ، وقد قادته شهوة الحكم إلى عدم الاستقرار النفسي ، وفقد الثقة بنفسه ، ولم يجد أحداً يركن إليه ، وكان مصيره القتل كأبيه^(٣) .

ورغم ما فعله ديبس من أمور ليست في صالح الإسلام والمسلمين على المسرحين العراقي والشامي ، فقد اختلف المؤرخون حول شخصيته ، فهاهو العظمي يصفه بأنه " فارس الإسلام والعراق"^(٤) . أما الذهبي فقد أنصفه بتعداد مناقبه ومعاليه بقوله عنه: "كان فارساً شجاعاً ممدحاً أديباً كثير الحروب والفتن . خرج على المسترشد بالله غير مرة ، ودخل خراسان والشام والجزيرة ، واستولى على كثير من العراق . وكان مسعر حرب ، وجمرة بلاء .

(١) هو عماد الدين بن قسيم الدولة الحاجب آقسنقر . ولد سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م تقريباً : من أصل تركي . كان أبوه آقسنقر أول ملوك الدولة الأتابكية في الموصل من أصحاب ملكشاه بن ألب أرسلان . وعندما مات آقسنقر ، ولي زنكي واسط ، وحمى البصرة من الأعراب سنة ٥١٧هـ ، ثم حكم الموصل وبلاد الجزيرة سنة ٥٢١هـ ، وحلب سنة ٥٢٢هـ . قتل عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م ، ودفن في صفين . (خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٥٠) .

(٢) ابن القلاسي ، المصدر السابق ، ص ٣٦٦-٣٦٧ : ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج ١٧ ، ص ٢٦٣ : ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٣-٤٥ ، ٤٧-٥٠ .

(٣) ابن الأثير ، المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٣٠ .

(٤) العظمي ، تاريخ حلب ، ٣٨٧ .

قتله السلطان مسعود (٥٢٧-٥٤٧هـ/١١٣٢-١١٥٢م)^(١) بمراغة في ذي الحجة [٥٢٩هـ] وأظهر أنه قتله أخذاً بثأر المسترشد. فله الحمد على قتله"^(٢). لقد انتقد ابن العديم من امتدحوا دبيس بن صدقة وذكرهم بأعماله الشائنة ضد المسلمين وقال : "لقد محا دبيس شرف أبيه صدقة ومكارمه المحققة، ومآثر آبائه وأجداده"^(٣).

ومن استقرائنا للنصوص المتعلقة بدبيس بن صدقة نستنتج الآتي:

(أ) أن دبيساً فشل - محلياً - بانتزاع منصب من الخليفة العباسي يرضي طموحه ، رغم مكانته القبلية، وإمكاناته الاقتصادية والعسكرية، لأنه رجل لا يركن إليه . الأمر الذي جعله يتحول إلى عنصر قلق وخوف وسلب في العراق.

(ب) سلك دبيس لتحقيق أحلامه طريقاً إلى الشام من خلال مصاهرته لبني عقيل في جعبر، ومكاتبته أعياناً في حلب ، ثم في تحالفه مع الصليبيين فلم يفلح.

(ج) استغل دبيس مذهبه للتأثير على سكان الشام من الشيعة ، فلم ينجح لما اشتهر عنه من تقلب مذهبي قمليه الظروف السياسية ، ولما قام به من أعمال ضد مشاهد في العراق والشام ، وإقراره استهزاء حلفائه الصليبيين أثناء حصار حلب بالقرآن المجيد ، ومحمد ﷺ ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . وما نجم عن حصار حلب من مجاعة فتكت بإخوانه سكان حلب.

(د) النتيجة الأخيرة - وهي الأهم - تتجلى في موقف قبائل الشام من دبيس بعد أن ثبت تواطؤه مع الإفرنج، فلم تستقبله ربيعة لاجئاً، وقامت بنو كلب بالقبض عليه، وتسليمه

(١) تولى السلطان السلجوقي مسعود السلطنة في بغداد سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م. حارب الخليفة المسترشد وقتله ، وعاصر الخليفة الراشد، والمقتفي. مات مسعود عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م في همدان. (حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج٤، ص ٥٢-٥٨) .

(٢) الذهبي ، العبر ، ج ٢، ص ٤٣٥

(٣) ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، ج ٧، ص ٣٤٨٦.

إلى دمشق، وهذان موقفان يدلان على أن هاتين القبيلتين لم تقرا أعمال دبيس وشغبه. ولا يمكن لهذا الموقف السلبي الذي بدر من دبيس، أن يغطى حق القبائل الأخرى في الشام، التي كان لها دور في مقاومة الوجود الصليبي، في الحقبة التي سبقت الحقبة الأيوبية. ذكر ابن الأثير ضمن حوادث سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م، أن جوسلين صاحب تل باشر سار بجمع من الإفرنج من طبرية " فكبس طائفة من طيئ يعرفون ببني خالد فأخذهم وأخذ غنائمهم" وسار للإغارة على بني ربيعة في وادي السلالة^(١)، وانفصل عن جيشه بخمسين فارساً وتواعد مع البقية وعددهم مائة وخمسون فارساً واختلفوا في الميعاد حيث وصلوا قبل زعيمهم. أما بنو ربيعة فقد قرروا الرحيل بعد سماعهم عن توجه الإفرنج فمنعهم أميرهم وكان عددهم مائة وخمسين فارساً، التقى بهم فرقة من جيش جوسلين فهزمهم وقتل منهم سبعين وأسر اثني عشر مقدماً منهم، ثم أطلقهم مقابل فدية كبيرة^(٢). ويذكر أبو الفداء أن أمير ربيعة المشار إليه في هذه الحادثة كان مرا بن ربيعة^(٣).

وكان للعرب القاطنين حول دمشق دور في تعقب فلول الحملة الصليبية الثانية بعدما فشلت في احتلال دمشق عام ٥٤٣هـ / ١١٤٨م، وفتك العرب بمجموعات إفرنجية كانت تهاجم أعمالاً تابعة لدمشق^(٤).

أما بنو كلاب فقد أسهموا في جهاد الصليبيين، ففي ربيع الأول عام ٥١٣هـ اشترك أسامة بن مبارك بن شبل الكلابي^(٥) مع الأمير إيلغازي صاحب حلب في قتال

(١) حدد ابن الأثير "وادي السلالة" بين دمشق وطبريا (ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٥٥٦).

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٠، ص ٥٥٥-٥٥٦.

(٣) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر ج ٢، ص ٢٣١.

(٤) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ٥٧.

(٥) أسامة بن مبارك بن شبل الكلابي. كان أبوه مبارك أمير بني كلاب في منطقة حلب إبان حكم السلطان

ملكشاه. مات مبارك عام ٤٩٣هـ (ابن العديم، زبدة الحلب، ج ٢، ص ١٤٣، ٩٦).

الإفرنج في موقعة تل عفرين ^(١) ففتك المسلمون بهم ، وأسروا نيافاً وسبعين من مقدميهم ^(٢) . ووقف بنو كلاب مع نور الدين زنكي ^(٣) ضد شهاب الدين مالك العقيلي صاحب جعبر ، هذه الإمارة التي ناصرت ديبس ابن صدقة حليف الإفرنج ، وتورط حكامها في اغتيال عماد الدين زنكي عام ٥٤١هـ / ١١٤٦م . ففي عام ٥٦٣هـ ، كمن عرب من بني كلاب لشهاب الدين ، وهو نازل من القلعة في رحلة صيد ، وسلموه لنور الدين "فأعطاهم ألفاً من الذهب والثياب" وذلك في رجب عام ٥٦٣هـ / أبريل - مايو ١١٦٨م ^(٤) .

المبحث الثاني : الأعراب و مملكة بيت المقدس :

أورد المؤرخ الصليبي وليم الصوري ^(٥) قصة عن موقف رئيس قبيلة عربية من جودفروا دو بيون Godefroi de Bouillon ملك مملكة بيت المقدس (١٠٩٩ - ١١٠١م) ^(٦) فبعد أن عاد الملك الصليبي من انتصار له محملاً بالغانم والأسرى أرسل

(١) تل عفرين على نهر عفرين في نواحي المصيصة يجري إلى حلب (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٤، ص١٣٢) .

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج١، ص٥٥٤ .

(٣) هو محمود بن زنكي بن آقسنقر ، أبو القاسم . نور الدين . ولد في حلب سنة ٥١١هـ / ١١١٨م . تولى إمارتها بعد وفاة أبيه سنة ٥٤١هـ . جده من موالى السلاجقة . مات بعلبة الخوانيق في قلعة دمشق عام ٥٦٩هـ / ١١٧٤م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٧، ص ١٧٠)

(٤) ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية، ص١٧٤ .

(٥) وليم الصوري Guillaume de Tyr، مؤرخ صليبي ، من أصل فرنسي . ولد في صور عام ١١٣٠م . كان مستشاراً لدى الملك عموري الأول ملك مملكة بيت المقدس ، ثم ابنه بلدوين الثالث . أصبح وليم رئيس أساقفة صور عام ١١٧٥م . ترك تاريخاً مهماً عن الوجود الصليبي في الشرق (١٠٩٥ - ١١٨٤م) . مات في عام ١١٨٦م . Larousse, T.10, p.4396

(٦) هو جودفروا الرابع دو بولوني أو بويون . ولد في بيزي عام ١٠٦١م تقريباً . ابن أوستاش الثاني كونت بولوني . ورث عمه جودفروا الثالث دوق اللورين فأصبح دوق اللورين الأسفل (١٠٨٩ - ١٠٩٥م) . باع دوقيته ، وغادر في الحملة الصليبية الأولى، وانتخب أول ملك غير متوج لمملكة بيت المقدس (١٠٩٩ - ١١٠٠م) . Larousse, T.10, p.4198

إليه هذا الشيخ يعرض عليه المهادنة فأجاب طلبه ، فجاء الشيخ العربي على رأس وفد لمقابلة الملك فلما وقف أمامه التمس منه أن يهوي بسيفه ليقطع رقبة جمل أحضر لهذه الغاية ليرى قوة الملك الذي انتشر خبر شجاعته بين الناس ولكن العربي ظن أن القوة بالسيف فالتمس من الملك أن يعيد التجربة بسيف العربي ففعل مثل الأولى فاقتنع بقوة الملك فقدم هداياه إلى الملك من ذهب وفضة وخيل^(١) .

وعندما أصبح بلدوين الأول Baudouin I ملكا على بيت المقدس (١١٠١-١١١٨م)^(٢) ، استطاع أن يبسط نفوذه على شرق الأردن ، ويتحكم بالطريق المتجه من بصرى^(٣) إلى كل من سيناء وبلاد العرب ، وعلى المراعي والأودية ، وكان لا يسمح لأي قبيلة عربية أن تضرب خيامها إلا بإذن منه مقابل ضريبة تؤدي لخزينة مملكة بيت المقدس ، وخدمات يؤدونها كالاشتراك معه في المعارك ، والتجسس. وهذا ما جعله يكبس قبيلة بني خالد في وادي السلالة^(٤) .

ويحكى وليم الصوري قصة أخرى ، فقد هجم بلدوين الأول سنة ١١٠١م على قبيلة شرق نهر الأردن ، وكان العرب نائمين في خيامهم .. فأسر بلدوين بعض رجالهم ، وسبى نساءهم ، واسترق أطفالهم ، واستولى على ممتلكاتهم وخيولهم وجمالهم ، وفر كثير من رجال القبيلة على خيولهم السريعة . وكان ضمن السبي امرأة شيخ القبيلة جاءها المخاض أثناء المسير ، فأمر بلدوين بإنزالها من بعيرها ، ونصب خيمة لها مع وصيفة تخدمها ،

(١) وليم الصوري ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٨٥-١٨٦ .

(٢) بلدوين دو بولوني هو أخ جودفروا دو بوين ، أصبح أميراً على الرها (١٠٩٨-١١٠٠م) ، وبعد وفاة أخيه ،

انتخب ملكاً على مملكة بيت المقدس (١١٠٠-١١١٨م) . Larousse, T.3, p.928.

(٣) بصرى مدينة حوران السفلى ، بل قصبة حوران ، وهي على حد البرية . (ابن فضل الله العمري ، مسالك

الأبصار في ممالك الأمصار "دولة المالك الأولى") ، ص ١٩٠ .

(٤) Praver, Histoire du royaume latin de Jerusalem, T.I, p.304.

وتزويدها بالطعام والماء ، وترك عندها ناقتين تشرب من حليبيهما ، ودثرها بعباءته ، وتابع هو وجيشه الزحف عائدين إلى بيت المقدس . أما شيخ القبيلة ، فقد قص أثر الجيش الصليبي ، وفكره مشغول بحالة زوجته ، وبعد أن بلغ منه اليأس مداه ، وجد زوجته داخل خيمة وقد ولدت مولودها بسلام " وشرع يشيد بذكر اللاتين مثنيا على رحمة بلدين العظيمة الثناء المستطاب . وأقسم ليكون منذ هذه اللحظة إلى آخر عمره وفيأ له ما وسعه الوفاء ، وكان هذا عهداً أوفى به في لحظة حرجة أشد الحرج ."^(١)

ولا شك أن وليم الصوري تخيل ذلك المشهد بناء على معرفته بطبائع أهل الصحراء وعاداتهم ومن تلك رد الجميل ، وتسنى للشيخ العربي إنقاذ بلدين من موقف حرج ؛ ففي ١٧ مايو عام ١١٠٢م / ٤٩٥هـ ، حدثت معركة في الرملة بين الجيش المصري بقيادة شرف المعالي بن الأفضل^(٢) وبين الصليبيين بقيادة بلدين فانهمز الصليبيون ، فتحصن بلدين داخل الرملة ، وخطط شرف المعالي للهجوم على المدينة في الصباح التالي ، وكان الشيخ العربي الذي رعى الملك الصليبي زوجته حاضرا ، فأسرع إلى بلدين ومثل أمامه ، وعرفه بنفسه ، وأخبره بما قرره المصريون ، وعرض عليه إنقاذه ، فاصطحب الملك مع عدد قليل من رجاله ، وسلك بهم طريقاً جلياً ، حتى بلغوا مأمنهم ، ثم عاد إلى عسكر المصريين . الذي كان يضم عدداً كبيراً من البدو"^(٣) .

في عهد فولك دأنجو Foulque d'Anjou ملك بيت المقدس (١١٣٠ -

(١) وليم الصوري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢١١-٢١٢ .

(٢) شرف المعالي هو ابن الأفضل شاهنشاه أحمد بن بدر الجمالي الملقب بالملك الأفضل؛ وزير مصر ، (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٣) .

(٣) وليم الصوري، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٢-٢٣٣ : Prawer, Histoire du royaume latin de : Jerusalem, T. I, p. 268.

١١٤٣م^(١) نشط عرب الصحراء في مقاومة الصليبيين على طريق الرملة القدس المتصل بالساحل ، فكلف الملك الصليبي جماعة الداوية "الهيكلين"^(٢) بمراقبة الطريق وحماية المسافرين الصليبيين من حجاج وتجار ، فتحولت هذه المنظمة من منظمة تعنى بإيواء الحجاج وعلاجهم إلى جهاز عسكري^(٣).

وكان بلدوين الثالث Baudouin III (١١٤٣ - ١١٦٣م)^(٤) ، يمنح إذنا للعرب الرحل بالإقامة في المراعي الخاضعة لنفوذه . يحدثنا وليم الصوري عن أعداد كبيرة من عرب الصحراء استأذنت الملك بلدوين الثالث في الإقامة حول بانياس^(٥) لنصب خيامهم ورعي أغنامهم ، ولكن الملك بناء على إغراء مجموعة صليبية نقض العهد فهجم عليهم وساق مواشيهم وفر كثيرون منهم ، وقتل الملك من وجده منهم وأسر بعضهم وذلك عام

(١) هو فولك الرابع كونت أنجو ، أحد بارونات مملكة بيت المقدس. من أسيرة إقطاعية فرنسية، دخل في صراعات إقليمية ، وفي عام ١١٢٠م، غادر فرنسا إلى فلسطين ، ثم عاد إلى بلاده ليكون تابعاً للملك فرنسا على ماين. وفي مارس ١١٢٨م ، رجع إلى القدس ، ليتوج بعد موت بلدوين الثاني ملكاً على بيت المقدس في ١٤ سبتمبر ١١٣١م. (Grousset, Histoire des croisades, T.III, p.197-201)

(٢) هم فرسان الهيكل أو الهيكلين أو "الداوية" كما يسميهم المسلمون ، منظمة أسسها فرنسي يدعى هو دو بين Hugues de Payns الذي يقال إنه قدم إلى الشرق مع الحملة الأولى ، ثم عاد إلى الغرب ، حيث التقى صديقه برنارد دو كليرفو الذي شجعه على إنشاء هذه المنظمة ، وفي عام ١١١٩م منحه بلدوين الثاني ملك بيت المقدس مكاناً في المسجد الأقصى ، وكان هدف المنظمة في البداية حماية الحجاج وإيوائهم، ثم تحولت إلى منظمة إرهابية. للمزيد انظر: Demurger, Vie et mort de l'ordre du Temple.

(٣) Prawer, Histoire du royaume latin de Jerusalem, T.I, p.328.

(٤) ولد بلدوين الثالث، عام ١١٣٠م ، وهو ابن الملك فولك دأنجو . توفي أبوه وعمره ثلاث عشرة سنة ، فتولت أمه مليزاند الوصاية عليه ، حاصر دمشق مع الحملة الثانية في ٢٨ نوفمبر ١١٤٤م . مات عام ١١٦٢م. للمزيد :

انظر: Grousset, L'epopee des croisades, p.132-133,155

(٥) بانياس : مدينة بالقرب من دمشق . لها قلعة يحيط بها نهر، وحولها مروج خضراء ، وساقية. (الحميري ، المصدر السابق، ص٧٤).

٥٥٢هـ / ١١٥٧م . وقد انتقد وليم الصوري هذا الغدر وقال إنه سبب ما حل بالصليبيين فيما بعد من كوارث لأن العهد يجب أن يسان..^(١) .

ورغم هذا الموقف من بلدوين الثالث ، إلا أنه أدرك أهمية العنصر البدوي في قتاله ضد العبيديين . فقد قاد فرقة من أربعمئة صليبي ، ومعهم قوة بدوية ، التقى بهم المصريين في شعبان ٥٥٣هـ / خريف ١١٥٨م ، وأسفرت المعركة عن انتصار المصريين ، وفرار الصليبيين وحلفائهم من البدو إلى عمق الصحراء تاركين خيولهم وأشياءهم^(٢) .

ويتهم وليم الصوري فئة من الأعراب ، بأنهم مع من غلب ، ويذكر أن صلاح الدين الأيوبي (٥٦٩ - ٥٨٩هـ / ١١٧٤ - ١١٩٣م)^(٣) توجه لقتال الصليبيين عام ١١٧٨م ، فلما بلغ العرش^(٤) ترك فيها عتادا وبعض الرجال وسار باتجاه عسقلان فأسرع إليها الملك بلدوين الرابع Baudouin IV ملك مملكة بيت المقدس (١١٧٤ - ١١٨٥م)^(٥) ، وعسكر حولها ، وتمكن الصليبيون من هزيمة المسلمين ، وتبعثر جيش صلاح الدين ، وانقض الأعراب

(١) وليم الصوري، المصدر السابق ، ج٣ ، ص٤٠٣-٤٠٤ .

أرخ ابن القلاسي لهذه المعركة في العشر الأواخر من ذي الحجة سنة ٥٥١هـ . انظر : ابن القلاسي ، المصدر السابق ، ص٥١٧ .

(٢) Elisseeff, Nour ad-Din, T.II.p.529

(٣) صلاح الدين الأيوبي ، هو يوسف بن أيوب بن شاذي ، أبو المظفر ، كان أبوه وأهله من قرة دوين شرقي أذربيجان وهم بطن من الروادية من قبيلة الهذانية ، من الأكراد ، ولد في تكريت عام ٥٣٢هـ / ١١٣٧م . توفي في دمشق سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٨ ، ص ٢٢٠) .

(٤) العرش أول بلد مصري ناحية الشام على البحر الأبيض المتوسط ، وسط الرمل (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج٤ ، ص١١٣)

(٥) تولي بلدوين الرابع عرش مملكة بيت المقدس بعد موت أبيه عموري الأول في ١١ يوليو ١١٧٤م ، وكان في الثالثة عشرة من عمره ، ومصاباً بمرض الجذام ، فسمي بلدوين المجذوم ، وأصبحت الوصاية عليه مثار نزاع بين البارونات . وعندما بلغ السن القانوني لم يستطع مواجهة الظروف الداخلية والخارجية ، ولم يلبث أن مات عام ١١٨٥م . (سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٥٧٩)

على من ضل الطريق منهم "وكان من عادة هذه الطائفة [الأعراب] اللثيمة أنهم كانوا يتحاشون دائماً القتال فلا يخوضون معركة ما من المعارك أيا كان القائد بل يقفون على بعد من ساحة الحرب طالما لم تتضح نتيجتها، فإذا حسمت انضموا إلى الغالب وتعقبوا المغلوب وملأوا أيديهم بالأسلاب والغنائم"^(١).

ودخل الأعراب عنصراً في الصراع الداخلي بين الصليبيين أنفسهم ، يقول وليم السوري إن الملك بلدوين الرابع منح طائفة من العرب حق الرعي ونصب خيامهم حول قلعة الداروم ، إلا أن جي دو لوزينيان Guy de Lusignan كونت يافا^(٢) - لعداء بينه وبين الملك - هاجم هذه القبيلة وساق مواشيهم وعبيدهم وعاد بهم إلى عسقلان . وحين سمع الملك نبأ هذه الغارة استدعى بارونات وعهد إلى ريموند الثالث Raymond III كونت طرابلس (١١٥٢-١١٨٧م)^(٣) برعاية مصالح المملكة وذلك عام ١١٨٣م^(٤).

الفصل الثالث : الأعراب في عصر الأيوبيين

المبحث الأول : في عهد صلاح الدين:

في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، أخذت الدولة العبيدية

(١) وليم السوري ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢٢ ، ٢٣١ .

(٢) جي دو لوزينيان Guy de Lusignan كونت يافا . فارس فرنسي . زوجه بلدوين الرابع من أخته الكبرى سيبيل ورثته الشرعية ، وأقطعه يافا وعسقلان عام ١١٨٠م . تولى ملكة بيت المقدس بعد موت بلدوين الخامس

عام ١١٨٦م . أسر في معركة حطين سنة ١١٨٧م . (سعيد برجايوي، الحروب الصليبية، ص ٣٧٠ ، ٣٨٢) .

(٣) كان عمره عندما اغتيل أبوه ريموند الثاني عام ١١٥٢م إحدى عشرة سنة، فكان عموري الأول وصياً عليه خلال الفترة (١١٦٤-١١٧١م) ، وعندما مات عموري . تولى ريموند الوصاية على ابنه بلدوين الرابع سنة

١١٧٤م . نجا من معركة حطين ، ومات نهاية عام ١١٨٧م . (رنسيمن، المرجع السابق، ج ٢ ، ص ٥٣٦ ، ٧٥٩ ، ٦٥٣) .

(٤) وليم السوري، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٤٧ .

Prawer, Histoire du royaume latin de Jerusalem, T. I, p. 629. ؛

طريقها إلى الأفول ، وتصارع على وزارة مصر الأرمن والعرب ، ثم تنازع العرب ذلك فيما بينهم . ولأهمية مصر في مواجهة الصليبيين ، رأى نور الدين زنكي إرسال قوة لضبط الأمور فيها ، بقيادة أسد الدين شيركوه^(١) ، الذي قاد ثلاث حملات ضد التدخل الصليبي في مصر ، حتى تم له النصر وعين وزيراً لمصر عام ٥٦٤هـ / ١١٦٩م ، وبعد وفاته تولى الوزارة - بموافقة الخليفة العبيدي العاضد - (٥٥٥-٥٦٧هـ / ١١٦٠-١١٧١م) ^(٢) ، صلاح الدين الذي كان مرافقاً لعمه شيركوه . وفي عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، مات العاضد ، فاستولى صلاح الدين على قصر الخلافة معلناً ميلاد الدولة الأيوبية^(٣) .

خلال الحملات الثلاث على مصر ، التي اشترك فيها صلاح الدين مع عمه ، شعر صلاح الدين بأهمية العنصر العربي الم رابط في الصعيد ، فأراد أن يعمق الولاء القبلي له - بعد أن ولي أمر مصر- ، فاستقدم ثعلبة الشام وطائفة من جرم إلى مصر وقد ذكر أن هاتين القبيلتين كانتا مع الإفرنج ، غير أن الحقيقة أنهم كانوا "غزاة مجاهدين لهم آثار في الإفرنج" كما ورد في مسالك الأبصار^(٤) .

ولا يعني إعفاء هاتين القبيلتين من تهمة التعاون مع الإفرنج ، عدم وجود فصائل

(١) أسد الدين شيركوه بن شاذي بن مروان ، أبو الحارث ، أسد الدين ، الملك المنصور ، أول كردي يلي مصر ، أخر نجم الدين أيوب ، عم صلاح الدين . أرسله نور الدين نجدة لوزير مصر شاور السعدي سنة ٥٥٨هـ . وبعد قتل شاور ، ولاه العاضد وزارة مصر فلم يمكث فيها سوى شهرين وخمسة أيام إذ مات سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م . دفن في القاهرة ، ثم نقل رفاته إلى المدينة (خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٣) .

(٢) هو عبدالله العاضد ابن يوسف بن الحافظ ، أبو محمد ، أخر ملوك الدولة العبيدية . ولد عام ٥٤٤هـ / ١١٤٩م ، وبويع بالخلافة بمصر عام ٥٥٥هـ بعد موت الفائز . مات مريضاً عام ٥٦٧هـ / ١١٧١م . (خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٤٧) .

(٣) عن انتقال السلطة من الفاطميين إلى صلاح الدين ، انظر: عبدالله سعيد الغامدي ، صلاح الدين والصليبيون ، ص ٣١-٥٤ .

(٤) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ ، ١٧٦ .

تساندهم ، ودليلنا على ذلك ما ورد في رسالة بعث بها صلاح الدين إلى نور الدين ، يشرح له فيها أن سبب خروجه إلى حصني الكرك والشويك أوائل سنة ٥٦٨هـ / ١١٧٣م : "علم المملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنتهم ، ويفلل أسلحتهم ، ويقطع موادهم ، ويخرب بلادهم ، وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحد من العربان ، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان"^(١) . وربما عنى صلاح الدين من وصف العربان بذل الكفر ، كونهم عرباً غير مسلمين.

وفي الوقت الذي كان صلاح الدين الأيوبي يقوم بتأديب طائفة من العربان ، كان يحرص على تأليف قلوبهم ، لأهميتهم في إرشاد جيشه إلى السبل الآمنة ، ومصادر المياه ، والتجسس . وقد أخذ درساً بعد أن مني بهزيمة في جمادى الآخرة سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م قرب الرملة على يد القائد الصليبي " أرناط " رونو دو شاتيون-Renaud de Chatillon أمير الكرك (١١٧٧-١١٨٧م)^(٢) ، فاتجه صلاح الدين بجيشه إلى بركة بصرى ، ولم يكن معه أدلاء ، ولا ما يكفي من الماء فهلك كثير من دواب عسكره جوعاً وعطشاً^(٣) .

غزو الحجاز:

في عام ١١٧٧م ، أصبح رونو دو شاتيون ، أميراً على الكرك ، وهي القلعة التي تتحكم في طرق التجارة والقوافل بين الشام وكل من الحجاز ومصر ، ولا شك أن بقاءه في سجن نور الدين زنكي سبع عشرة سنة (١١٦٠-١١٧٧م) مكنه من التعرف على

(١) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

(٢) رونو دو شاتيون . فارس صليبي . قدم من فرنسا ، وتزوج بالأميرة كونستانس أرملة ريموند دو بواتيه عام ١١٥٣م ، فأصبح وصياً عليها في أنطاكية ، وقام بغارات ضد قبرص البيزنطية ، وأرمينية . سجنه نور الدين في حلب سبع عشرة سنة . ثم تولى الكرك ووادي موسى عام ١١٧٧م . قتله صلاح الدين في حطين عام

١١٨٧م . (Grousset, L'empire du Levant, p. 229-230)

(٣) ابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ٢ ، ٥٨-٦١ .

المسلمين وعقائدهم ، ولكنه وظف هذه المعرفة بعد تحريره في الكيد للإسلام وأهله . فاتخذ من هذا الموقع الإستراتيجي منطلقا ضد أهداف إسلامية ، من سلب قوافل التجار والحجاج ، والتوغل في جزيرة العرب إلى تيماء كما حدث عام ٥٧٧هـ / ١١٨١م ، أو قيامه بمغامرة لاحتلال المدينة النبوية^(١) .

ولتنفيذ هذا الحلم ، صنع الفلك في القلعة ، وحملها على جمال أعراب استأجرهم لهذه الغاية ، وأبحر بها في خليج العقبة ، بعد أن خلف سفينتين قبالة أيلة لمنع الحامية الإسلامية من التزود بماء الشرب ، فتضطر إلى مغادرتها . وقسم أسطوله إلى فرقتين : فرقة اتجهت إلى عيذاب^(٢) لسلب الحجاج ، وفرض إتاوات عليهم ، ورسوم على التجار ، وفرقة توجه بها إلى الحوراء^(٣) فتعقبه الحاجب حسام الدين لؤلؤ^(٤) الذي كان واثقا من النصر ، وأخذ معه قيودا بعدد الغزاة وكانوا ثلاثمائة أبطال من الكرك والشوبك . مع طائفة من العرب المرتدة " ، فاستولى على مراكب الإفرنج وأرسل على البر " فوجد عربا نازلين ، فركب خيلهم ، وسار وراء المنهزمين من الإفرنج " فلما بقي بينهم وبين المدينة يوم أدركهم لؤلؤ وبذل الأموال للعرب . فخامروا معه ، وذلت الإفرنج واعتصموا بجبل . فترجل لؤلؤ وصعد إليهم بالناس . وقيل بل صعد في تسعة أنفس فهابوه وسلموا أنفسهم . فصفدهم

(١) للمزيد عن رونو دو شاتيون وإمارة الكرك ، ينظر : محمود رزق محمود . العلاقات بين أرناط حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي . رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٣م .

(٢) عيذاب : ميناء على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، قرب قوص ، ومنها ينطلق الحجاج إلى جدة . (الحميري ، المصدر السابق ، ص ٤٢٣) .

(٣) الحوراء : مدينة على ساحل وادي القرى . بها مسجد جامع وثمانية آبار عذبة ، ونخل وأهلها عرب من جهينة ويلي . (الحميري ، المصدر السابق ، ص ٢٠٥) .

(٤) هو لؤلؤ الحاجب العادلي . من كبار دولة صلاح الدين الأيوبي وأخيه العادل . كان أرمنيا من غلمان القصر ، وأصبح مقدم الأسطول ، ثم ترك الخدمة عندما هرم . توفي في صفر سنة ٥٩٨هـ (الذهبي ، العبر ، ج ٣ ، ص ١٢٣-١٢٤) .

وقيدهم . ونحر أسيرين في منى ، وعاد بالبقية إلى القاهرة . وذلك في شوال عام ٥٧٨هـ / ١١٨٣م^(١) .

وبعث صلاح الدين إلى الخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ / ١١٨٠-١٢٢٥م)^(٢) برسالة ذكر فيها تفاصيل الحادث ، ومما ورد فيها: "وكان للإفرنج مقصدان : أحدهما قلعة أيلة التي هي على فوهة الحجاز ومداخله ، والأخرى الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله ، وانقسموا فريقين ، وسلكوا طريقين، فأما الفريق الذي قصد قلعة أيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياة، ويقاثلهم بنار العطش المشبوب الشبهاء ، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن، فقدّر أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين فجه ، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن ، ويلم بسواحل الحجاز ، فيستبيح - والعياذ بالله - المحارم ، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم. وكان الأخ سيف الدين [الملك العادل] بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقتين فأما السائرة إلى قلعة أيلة فإنها انقضت على مرابطي الماء انقضا الجوارح على بنات الماء ، فقذفتها كذف شهب السماء مسترقي سمع الظلماء ، فأخذت مراكب العدو برمتها ، وقتلت أكثر مقاتلتها ، إلا من تعلق بهضبة وما كاد ، أو دخل في شعب وما عاد ، فإن العريان اقتصوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم ... وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتمادت في الساحل الحجازي إلى رابع^(٣) إلى سواحل

(١) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧-١٢٨ : الذهبي ، العبر ، ج ٣ ، ص ١٢٣-١٢٤ .

(٢) هو الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفي . بوع بالخلافة غرة ذي القعدة عام ٥٧٥هـ ، وتوفي سنة ٦٢٢هـ وهو أطول بني العباس خلافة . (الذهبي ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٨٥-١٨٦) .

(٣) رابع : ميناء على ساحل البحر الأحمر ، تابع لمنطقة مكة المكرمة . (الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي ، ج ١/٣ ، ص ١٩٤) .

الحوراء فأخذت تجاراً وأخافت رفاقاً ، ودلهم على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفرا ونفاقا ، فهناك وقع عليها أصحابنا ، وأخذت المراكب بأسرها ، وفر فرنجها بعد إسلام المراكب ، فسلكوا في طريق الجبال مهاوي المهالك ، ومعاطن المعاطب ، وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلونهم شلا ، ويقنصونهم أسرا وقتلا ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلاً ورجلاً ، نهاراً وليلاً ، حتى لم يتركوا منهم خبراً ، ولم يبقوا لهم أثراً ، وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، وقيد منهم مائة وسبعون أسيراً^(١) .

يقول ابن جبير الذي كان في الإسكندرية لحظة وصول الأسرى الصليبيين: " أننا لما حللنا الإسكندرية ، في الشهر المؤرخ أولا (السبت ٢٩ من ذي القعدة ٥٧٨هـ / ٢٦ مارس ١١٨٣م) ، عاينا مجتمعاً من الناس عظيماً برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم إلى أذنانها ، وحولهم الطبول والأبواق.فسألنا عن قصتهم ، فأخبرنا بأمر تتفطر له الأكباد إشفاقاً وجزعاً : وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم على بحر القلزم [البحر الأحمر] ، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر ، سمروا مراكبهم ، وأكملوا إنشاءها وتأليفها ،ودفعوها في البحر ، وركبوها قاطعين بالحجاج ، وانتهوا إلى بحر النعم ، فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركباً.وانتهوا إلى عيذاب ، فأخذوا فيها مركباً يأتي بالحجاج من جدة ، وأخذوا أيضاً في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص إلى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يحيا أحدا ، وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة - أعزهما الله - وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام ، ولا انتهى رومي إلى ذلك الموضع قط. ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين

(١) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣١٧-٣١٨ أبو شامة ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

على دخول مدينة الرسول ﷺ، وإخراجه من الضريح المقدس، أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم، فأخذهم الله باجترانهم عليه، وتعاطبهم ما يحول عناية القدر بينهم وبينه. ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم، فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية، دخل فيها الحاجب - المعروف بلؤلؤ- مع أنجاد المغاربة البحرين، فلاحقوا بالعدو وهو قد قارب النجاة بنفسه، فأخذوا عن آخرهم، وكانت آية من آيات العناية الجبارية. وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان، نيف على شهر ونصف أو حوله، وقتلوا وأسروا، وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها، ووجه منهم إلى مكة والمدينة، وكفى الله - بجميل صنعه - الإسلام والمسلمين أمراً عظيماً^(١).

ويجب أن نناقش في هذه النصوص دور الأفراد العرب في هذه المؤامرة سلباً وإيجاباً. أما الجانب السلبي فهو مشاركة "أعراب مرتدين" - حسب تعبير الذهبي - في نقل السفن إلى قرب أيلة ، وقيام عناصر " من العرب من أشبه ركبها في الكفر" - كما عبر أبو شامة - بإرشاد الحملة إلى رابع ثم الحوراء^(٢). وهذا التعبير كناية عن عظم الجريمة التي ارتكبها أصحاب الإبل من العرب المتعاونين مع أرناط ، ويوحى أيضاً بأنهم ليسوا مسلمين. ويستفاد من الوصف الوارد في خطاب العادل إلى أخيه صلاح الدين" ودلهم على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفراً ونفاقاً "أن ثمة أعراباً حملوا السفن، وآخرين رافقوا أرناط كأدلاء . أما أصحاب الجمال فذكر ابن جبير أن أرناط وجماعته : " أنشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم على بحر القلزم ، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر ، سمروا مراكبهم ، وأكملوا إنشائها وتأليفها". وكان ابن جبير يتلمس لهم العذر بأنهم حملوا خشباً لا سفناً،

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٥٧ .

(٢) أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

من مكان على خليج العقبة وليس من قلعة الكرك ,وانتهت مهمة الجمالين العرب عند هذا الحد. أما الأدلاء فكانوا - دون شك - على علم مسبق بالمشروع الصليبي , وضالعين بهذه الجريمة.ويؤيد المؤرخ الفرنسي ري Rey , ما ذهب إليه ابن جبير فيقول إن رونو دو شاتيون سيد الكرك قام في شهر مايو ١١٨٢م , بحمل أجزاء من سفن على جمال البدو من عسقلان إلى أيلة , ثم أعيد تركيبها , في خمس قطع حربية , وواحدة كبيرة (١) .

الجانب الإيجابي أن ثمة عرباً , كانوا مقيمين قرب الحوراء , أرشدوا حسام الدين لؤلؤ إلى جهة الهاربين من الإفرنج , وزودوه بالخيول كما ورد في خطاب العادل إلى أخيه صلاح الدين : "وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب". أو كما قال العماد الكاتب الأصفهاني - وهو كاتب مؤتمن في ديوان صلاح الدين - : إن حسام الدين لؤلؤ "صعد إلى البر فوجد أعراباً قد نزلوا منه شعاباً فركب خيلهم وراء الهاربين فحصرهم في شعب"(٢).

ولا صحة لما أورده المؤرخ الفرنسي ميشو من أن رونو دو شاتيون قد جند تحت لوائه في هذه الحملة "مائتين أو ثلاثمائة من العرب البدو". ومبعث مبالغة ميشو بهذا الرقم , ظنه أن ثمة مرحلتين منفصلتين لهذه الحملة , مرحلة أولى بدأت بنقل السفن جاهزة على ظهور الإبل , ومحاصرة أيلة , وفك الحصار بسبب اقتراب الأسطول المصري من الموقع , ومرحلة ثانية انطلقت إلى أن بلغت رابع , حيث تم القضاء عليها . ولم يشر ميشو إلى مصير البدو المشاركين , كما أنه لم يتحدث عن كيفية عودة رونو إلى الكرك"(٣).

صلاح الدين وأمراء العرب :

وجد صلاح الدين أن الجبهة الإسلامية يجب أن تمتد من مصر إلى الشام دون فاصل

(١) Rey(E.), Les Colonies Franques de Syrie, p. 155-156.

(٢) الفتح بن علي البنداري, سنا البرق الشامي, ص ٢١٢-٢١٣ ,

(٣) Michaud, Histoire des croisades, T. II, p. 255.

صليبي ، فقرر القضاء على أرناط واحتلال الكرك ، ولكن لا يتأتى ذلك إلا بعملية عسكرية شاملة ضد مملكة بيت المقدس ، بدأت بانتصاره على الجيش الصليبي في حطين يوم ٢٦ ربيع الآخر من عام ٥٨٣هـ / ٤ يوليو ١١٨٧م . وقد أسهم أمراء العرب في القتال ببسالة ، وبخاصة أثناء حصار صلاح الدين للقدس ، فقد كان الأمير عيسى بن شهاب الدين مالك العقيلي^(١) يصطلي القتال بنفسه كل يوم ، حيث كان يخرج فريق من إفرنج القدس لقتال فريق من المسلمين ، ولما لقي مصرعه احتدم القتال وأقبل المسلمون ينقبون السور ليفجروه بالنار مما جعل الصليبيين يعرضون على السلطان الأمان. ودخل المسلمون القدس في ٢٧ رجب / ٢ أكتوبر من العام نفسه^(٢) .

وكان لقبيلة ربيعة مشاركة فعلية في قتال الصليبيين تحت راية صلاح الدين ، وكان منهم من شهد حصار صلاح الدين لتبنين^(٣) عام ٥٨٤هـ / ١١٨٨م^(٤) ، وكذلك في وقعة عكا^(٥) في جمادى الآخرة من عام ٥٨٦هـ / ٤ يوليو ١١٨٩م ، حيث قتل أربعة من أمراء بني ربيعة ، هم الأمير زامل بن تبّل بن مرا بن ربيعة أمير النقرة ، والأمير حجي بن منصور بن دغفل بن ربيعة ، والأمير مطرف بن رفيع بن بردويل بن مرا بن ربيعة ، أما الرابع فلم يسمه العماد الكاتب الأصفهاني الذي قال عنهم : "فهؤلاء أربعة من ربيعة بنيت

(١) هو الأمير عز الدين عيسى ، أبوه شهاب الدين مالك العقيلي ، صاحب قلعة جعبر : انظر : حاشية (٨٥) .

(٢) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .

(٣) تبنين حصن منيع بناه الفرنج بعد عام ٥٠٠هـ ، ويقع في جبل عاملة في لبنان بين بانياس وصور . (ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبحار في ممالك الأمصار "دولة المماليك الأولى" ، ص ٢٠٧) .

(٤) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٥) عكا : ميناء فلسطيني على البحر الأبيض المتوسط ، بجوار خليج حيفا ، اتخذها الصليبيون بعد استرداد القدس على يد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، عاصمة لمملكة بيت المقدس الاسمية ، حتى استردها السلطان المملوكي الأشرف خليل عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م . (فولفغانغ ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ص ٩٤-٩٥) .

لهم في جنة الخلد ربوع ، وقدر لهم في رياض النعم رتوع" (١) .

وبالنظر إلى خبرة العرب في رصد تحركات العدو ، وسرعة الانقضاض عليه ، فقد اعتمد عليهم صلاح الدين ، في نصب الكمائن للإفرنج ، ففي سنة ٥٨٥هـ قرر صلاح الدين القبض على الإفرنج الذين يخرجون من صور للاحتطاب والاحتشاش واختار جماعة لتكمن لهم فيهم أربعة أمراء من ربيعة وطبى (٢) . وكان صلاح الدين يعمد إلى بعث فرقة عسكرية سريعة تقوم برصد العدو ، والانقضاض على فريق من جيشه . يحدثنا ابن شداد ، فيقول إن صلاح الدين سير في شهر جمادى الأولى ٥٨٨هـ " من عرب الإسلام جماعة للغارة على يافا ، وفي طرق عودتهم ، لم يعلموا بتحرك العدو من تل الصافية إلى شمال النطرون (٣) ، وفوجئوا به وهم يقتسمون الغنائم ، فكسروهم (٤) . ولعل لفظة "عرب الإسلام" توحى بأن ثمة عربا غير مسلمين ، وهذا يعضد ما رجحناه من أن العرب الذين دلوا رونو دو شاتيون في غزوه للحجاز هم غير مسلمين.

وقد حرص صلاح الدين على تنظيم الأعراب ، تحت إمرة زعيم قوي منحه صلاحيات واسعة فيمن يتبعه من قبائل ، وفي الوقت نفسه ربطه بوالي دمشق في الأمور المستعصية ، واستلام المخصصات له ولقومه (٥) .

ريتشارد قلب الأسد والأعراب :

ترتب على استعادة القدس وجزء كبير من فلسطين ، على يد صلاح الدين خروج حملة صليبية ثالثة ، يقودها ثلاثة من أعتى ملوك أوروبا: فريدريك الأول ببروسا Frederic

(١) العماد ، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٢٩٤ .

(٢) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١٢، ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) تل الصافية : حصن قرب بيت جبرين ناحية الرملة (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٢) .

(٤) ابن شداد ، المصدر السابق، ص ٣٢٢-٣٢٣ .

(٥) فرحان أحمد سعيد، آل ربيعة الطائيون، ص ٨٥ .

Auguste I Barbarousse إمبراطور المانيا (١١٥٢-١١٩٠م)^(١)، وفيليب أوغست Philippe ملك فرنسا (١١٨٠-١٢٢٣م)^(٢)، وريتشارد الأول قلب الأسد Richard I Heart of Lion ملك إنجلترا (١١٨٩-١١٩٩م)^(٣) الذي يعد القائد الأعلى لهذه الحملة بعد موت بربروسا، ومغادرة أوغست، وظل في فلسطين سنة وأربعة أشهر (يونيو ١١٩١- سبتمبر ١١٩٢م) تمكن خلالها من إلحاق هزائم بجيش صلاح الدين، واستفاد من عناصر بدوية في رصد تحرك القوافل من مصر إلى الشام. ويبدو أن هذه العناصر العربية المتعاونة مع الملك الإنجليزي تقوم بدور "العميل المزدوج" فتزوده بمعلومات غير صحيحة ليقع ضحية للمسلمين، ومن ذلك موقف ساقه ابن شداد لبديوين قابلا الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد وهو في عكا وأخبراه بقلعة عدد الفرقة الإسلامية التي توجهت من معسكر صلاح الدين لاستطلاع أحوال العدو، فطمع بها، وخرج إليها، فانثالت عليه أعداد كثيرة، استطاعت هزيمته وقتل جماعة منهم وذلك يوم الإثنين ١٠ شعبان ٥٨٧هـ، فاستدعى البديوين وضرب عنقيهما^(٤).

ولكن ريتشارد بدأ يتثبت من أقوال جواسيسه البدو، وذلك بأن يتنكر بزي عربي، ويعاين بنفسه الموقع المستهدف كما حدث في سنة ٥٨٨هـ، فقد طلب صلاح الدين وهو في

(١) ولد فريدريك الأول بربروسا في وايبلنجن عام ١١٢٢م، ورغم أنه توج إمبراطوراً في روما في ٨ يونيو

١١٥٥م، إلا أن علاقته بالبابوية ساءت بسبب أطماعه في إيطاليا. Larousse, T. 9, p. 3941

(٢) ولد فيليب الثاني أوغست في باريس عام ١١٦٥م، ابن لويس السابع. تولى عرش فرنسا عام ١١٨٠م،

أصدر البابا أوسنت الثالث ضده قرار حرمان عام ١٢٠٠م. مات عام ١٢٢٣م في مانت. (Larousse, T. 9, p. 7199-7200)

(٣) ولد ريتشارد الأول قلب الأسد في أكسفورد عام ١١٥٧م، الابن الثالث للملك هنري الثاني، دوق أكييتين

تنازع الحكم مع إخوانه عام ١١٧٣م، تحالف مع فيليب أوغست ضد أبيه الذي مات عام ١١٨٩م. أثناء

عودته من حملته على الشرق أسر في النمسا، ثم أطلق بقاءه ضخم، لكنه اغتيل في ليموزين في فرنسا عام

١١٩٩م. Larousse, T. 19, p. 8080

(٤) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢٧٨-٢٧٩.

القدس أن يوافيه الجيش المصري ويحترز من العدو ، يقول ابن شداد : إن " قافلة عسكر مصر نزلت على ماء يقال له "الخويلقة" بينما الإفرنج نازلون في رأس الحسى^(١) فأخبرت العرب العدو بذلك ، فركب ريتشارد قلب الأسد مع العرب بجمع يسير وسار حتى طاف بالقافلة بلباس عربي وهم نائمون ، فكبسهم " ومعه ألف رجل من جيشه ، وذلك فجر يوم ١٦ جمادى الآخرة ٥٨٨هـ / ٣٠ يونيو ١١٩٢م ، ففجىء المسلمون "وفروا مذعورين : قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وعسكر العادل ، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب ، وقسم استولى عليهم العدو" بجمالهم وأحمالهم . وكان عدد الأسرى خمسمائة ، والجمال المسلوية ثلاثة آلاف^(٢) .

أما الرواية الإنجليزية التي رواها المؤرخ الإنجليزي المجهول في كتابه عن حملة ريتشارد قلب الأسد ففيها من التفصيل ، ما يبرز حذر ريتشارد في تعامله مع البدو ، وتنسب المصادر الأولية عن خروج القافلة إلى جواسيس صليبيين يرتدون الزي العربي ، ويتحدثون باللسان العربي ، تحت امرة رجل برنارد "جاسوس الملك" ، وقد سبق للملك ريتشارد أن منح كل واحد منهم مائة مارك فضيا . وعندما خرج الملك بقوة من جيشه إلى الصحراء . جاء أحد الجواسيس "من مواطني هذه البلاد" وأخبره بنبا القافلة ، ولكي يتأكد الملك من صدق كلامه " بعث في الحال ببدي واثنين من التركوبول المحليين الموثوق بهم لينظروا القضية ويتقصوا الحقيقة وأمرهم أن يتزوا بالزي البدوي حتى يخيل لرائيهم أنهم مسلمون" ، وقابل الثلاثة عيونا من المسلمين تحرس القافلة ، فسألوا البدوي عن مقصده ، فقال جئنا من نواحي عسقلان، وكان يشير إلى رفيقيه بالتزام الصمت حتى لا يفتضح

(١) "الخويلقة" قرب الحسى ، والحسى واد يسيل جنوب الكرك ، وشمال معان . (الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، ج٤، ص٣٥٣-٣٥٤) .

(٢) ابن شداد، المصدر السابق، ص٣٢٦-٣٢٨ : أبو شامة ، الروضتين، ج٢، ص١٩٨ : ابن واصل ، المصدر السابق، ج٢، ص٣٨٣-٤٨٤ .

أمرهم من لهجتهما . إلا أن أحد المسلمين رد عليه قائلاً : "كذبت فما جئت إلا عينا أيها التعس الشقي لأنك مع ملك الإنجليز" فرد عليه البدوي "بل الكاذب أنت يا صاح" وعاد البدوي ورفيقاه إلى ريتشارد بعد أن جمعوا معلومات دقيقة عن ظروف القافلة ، فأمر رجاله بالاستعداد ، وفي هذه الأثناء قدم جاسوس آخر يخبره بأن القافلة قد علمت بخطته ، وأن أصحابها يهمون بالرحيل ، فقرر الملك مهاجمتها بمن معه من الإنجليز والصليبيين، وفرقة فرنسية، وأسفر الهجوم عن قتل ألف وسبعمائة فارس وعدد كبير من القوة الراجلة من المسلمين ، والاستيلاء على أربعة آلاف ما بين جمل وحمار وبغل^(١) .

ومن الروايتين الإسلامية والإنجليزية نستشف أن ثمة مخبرين من البدو يقدمون خدمات استخبارية للصليبيين وهذا أمر مكشوف لدى الجيش الإسلامي ، إلا أن معظم سكان الصحراء كانوا مع القوة الإسلامية ، فهم الذين أنقذوا من نجا من القافلة ، وفروا بهم داخل البرية ، أو أوصلوهم إلى الكرك سالمين.

وقد يكون تعامل البدو مع العدو حيلة ، للتمكن من الاستيلاء على غنائم في العمق الصليبي . ففي سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م، "هربت جماعة من العرب إلى الإفرنج ، ثم أرسلوا يطلبون الأمان على أن يسوقوا بما قدروا عليه ، فساقوا خمسمائة فرس"^(٢) .

المبحث الثاني : الأعراب في عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبي :

انتهت الحملة الصليبية الثالثة ، بتوقيع صلح الرملة بين ريتشارد قلب الأسد ، وصلاح الدين في ٢١ شعبان من عام ٥٨٨هـ/ ٣ سبتمبر ١١٩٢م ، لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر. ثم لم يلبث صلاح الدين أن توفي في دمشق يوم ٢٧ صفر من عام ٥٨٩هـ/ ٣ مارس ١١٩٣م. فتصارع أبناؤه وإخوانه على اقتسام مملكته ، فضعفت الجبهة

(١) المجهول، الحرب الصليبية الثالثة، ج ٢ ص ٢١٣ - ٢٢١ .

(٢) الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ١٧٩ .

الإسلامية ، حتى استطاع أخوه الملك العادل الأول سيف الدين أبو بكر تسلم سلطنة مصر والشام عام ٥٩٦هـ / ١١٩٩م^(١) .

كان هاجس استعادة عكا ، يسيطر على تفكير العادل ، فبنى قلعة الطور بغية رمي المدينة بالمنجنيق ، مما كان سببا في مجيء الحملة الصليبية الخامسة إلى عكا سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م ، وحاول الصليبيون تدمير حصن الطور فلم ينجحوا . ولم يرد العادل الدخول في حرب مباشرة مع الحملة^(٢) ، فلجأ إلى أسلوب الغارات الخاطفة وهو فن قتالي يتقنه عرب الشام . وذات يوم تسلل عرب إلى نواحي عكا وتمكنوا من الاستيلاء على خيمة كبيرة كان إفرنج عكا يستعملونها كنيسة متنقلة ، فنصبت في دمشق لإطعام البائسين^(٣) . وعندما توجهت الحملة الصليبية الخامسة إلى مصر ، وحاصرت دمياط^(٤) ، أخذ العادل يرتب أموره الداخلية في الشام ، ولعله كان يخشى أن ينقض إفرنج أنطاكية على حلب ، فكتب إلى ابنه الملك الأشرف سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م^(٥) يأمره بأن يرحل إلى حلب وانضمت إليه جماعة عظيمة من العرب بقيادة الأمير مانع بن حديثه أمير آل فضل، الذي كان الأشرف يداريه لحاجته إليه^(٦) .

وبعد أن توفي العادل يوم الجمعة ٨ جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ / ٣١ أغسطس ١٢١٨م،

(١) لمزيد من التفصيل عن هذه المرحلة، راجع: الحنبلي، شفاء القلوب، ص ١٧٧-٢٠٨ .

(٢) لمزيد من التفصيل عن الحملة الصليبية الخامسة، انظر: محمود سعيد عمران، الحملة الصليبية الخامسة.

(٣) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص ١٠٠ .

(٤) دمياط ، على فوهة الفرع الشرقي من النيل عند مصبه في البحر الأبيض المتوسط . (الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، ج ٨، ص ١٣٢) .

(٥) الملك الأشرف سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م الملك الأشرف . هو موسى بن محمد العادل بن أبي بكر محمد بن أيوب. ولد في القاهرة أو الكرك عام ٥٧٨هـ / ١١٨٢م . أول ما ملك الرها سنة ٥٩٨هـ ، وأضيف إليه حران وملك نصيبين سنة ٦٠٦هـ، وسنجار والخابور سنة ٦٠٧هـ ، وميافارقين سنة ٦٠٩هـ . ومات في دمشق سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٧، ص ٣٢٧-٣٢٨) .

(٦) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ : ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .

تولى ابنه الكامل زمام الحكم في مصر سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م) ، وصمد أمام الحملة الصليبية الخامسة ، حتى جلت عن مصر. ثم دخل في صراع مع إخوته في الشام ، وأصبح "العربان" عنصرا فاعلا في هذا الصراع . ففي سنة ٦٢٣هـ/ خرج على الكامل أخوه الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق (٦١٥-٦٢٤هـ / ١٢١٨-١٢٢٧م)^(١) وأرسل جماعة من عرب دمشق هاجمت قرى حمص ، فأرسل الملك الأشرف موسى (ت ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م) ، الأمير مانع بن حديثه في جموع كثيرة من العرب لإنجاد الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ابن محمد بن شيركوه ، صاحب حمص (٥٨١-٦٣٧هـ / ١١٨٥-١٢٣٩م)^(٢) ووقعت بين عرب مانع وعرب دمشق عدة وقعات^(٣) .

ولما استقرت الأمور للكامل في الشام . اعتمد على العرب في حفظ طرق التجارة والمسافرين بين مصر والشام . حتى أمنت السبل ، وخافه قطاع الطريق . يقول ابن واصل : "وبلغ من هيبته أن الرمل الذي بين العريش وديار مصر كان يمر به الإنسان وحده ومعه الذهب الكثير ، أو الجماعة اليسيرة ومعهم الأحمال من القماش فلا يخافون سارقاً ولا قاطع طريق. ولقد سرق مرة بساط ، فأحضر العرب الذين يخفرون الطريق ، فقال: أريد البساط بعينه وأريد سارقه ، وإلا عذبت نفوسكم ، ونهبت أموالكم ، فبذلوا

(١) الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق (٦١٥-٦٢٤هـ / ١٢١٨-١٢٢٧م) الملك المعظم : هو عيسى ابن محمد أبو بكر العادل بن أيوب، شرف الدين الأيوبي ، سلطان الشام من حمص إلى العريش . ولد في القاهرة عام ٥٧٦هـ / ١١٨٠م . توفي في صالحيه دمشق عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٥، ص ١٠٧) .

(٢) الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ، صاحب حمص (٥٨١-٦٣٧هـ / ١١٨٥-١٢٣٩م) . المجاهد الأيوبي شيركوه الثاني، بن محمد بن شيركوه، أسد الدين أبو الحارث ، الملك المجاهد . ولد سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م . كان صاحب حمص وشارك في مقاومة الحملة الصليبية الخامسة سنة ٦١٥-٦١٨هـ . مات في حمص سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٨٣) .

(٣) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤، ص ١٧٧-١٧٨ : ابن العديم ، زبدة الحلب، ج ٣، ص ١٩٧ .

له عوضه شيئاً كثيراً ، فأبى أن يقبل شيئاً من ذلك ، وأصر على مطالبتهم بالمأخوذ بعينه فأحضره" (١).

واستعمل جمال العرب في نقل الغلال من مصر إلى مناطق في الشام . وحدث أن طلب السلطان الكامل من أميري بني ربيعة مانع بن حديثه وغنام بن الظاهر جمالا يحمل عليها غلالا ، فاعتذرا لوجود الإبل في البرية ، وكان أمير من بني كلاب حاضراً فتعهد للكامل بنقل غلاله ، الأمر الذي جعل لبني كلاب منزلة عند الكامل . بينما نقم السلطان على مانع وغنام ، فسعيا إلى استرضائه ، فويخهما وقال لهما : " والله لولا أنكما عربيان لأفعلن بكما الواجب" وهذا دليل على تقديره للعرب . وظلا يخطبان وده ، وعندما استولى الكامل على دمشق في ١٩ جمادى الأولى ٦٣٥هـ / ١٢٣٨م ، قدم عليه مانع وغنام وقدموا له هدايا ثمينة ، ودخلا في خدمته (٢) .

ويجب أن نشير إلى أن الكامل استقدم فريدريك الثاني Frederic II إمبراطور ألمانيا (١٢١٢-١٢٥٠م) (٣) ، ليؤازره ضد أخيه المعظم صاحب دمشق ، فوصل إلى عكا على رأس حملة صليبية سادسة ، ولم ترق خلالها قطرة دم ، بل أسفرت عن معاهدة يافا في ربيع الآخر سنة ٦٢٧ / فبراير ١٢٢٩م ، بين الكامل وفريدريك تضمنت تسليم القدس وبيت لحم والناصرة (٤) ، ويكون الطريق من عكا إلى القدس للصليبيين ، وأن تضع الحرب

(١) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٥٧ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

(٣) ولد فريدريك الثاني عام ١١٩٤م ، وأصبح ملكا على صقلية (١١٩٧-١٢٥٠م) وإمبراطور ألمانيا (١٢٢٠ - ١٢٥٠م) وهو ابن هنري السابع . عرف عنه حب العلم ، واحترام الحضارة الإسلامية . تصادم مع البابوية

Larousse,T9, p. 3941- 3942.)

(٤) بيت لحم والناصرة :بيت لحم جنوب القدس ، محل ميلاد المسيح عليه السلام . احتلها الصليبيون عام ١٠٩٩م ،

واستردها المسلمون عام ١١٨٧م.فيها كنيسة المهد . Larousse, T. 3, p. 1043

الناصرة : مدينة في الجليل بفلسطين ، وهي البلدة التي عاش فيها المسيح حياته الأولى ، ومركز حج النصارى (Larousse,T15, p. 6437) .

أوزارها بين الجانبين عشر سنوات. وأثارت هذه الاتفاقية الرأي العام الإسلامي، وتضرر المسلمون حضراً وبدواً وريفاً من تبعاتها^(١).

وبعد أن توفي الكامل في رجب سنة ٦٣٥هـ/ مارس ١٢٣٨م. وقع الشقاق بين أفراد أسرته. وأخذ كل حاكم أيوبي يتوسع على حساب الآخر، أما القبائل العربية فإنها في غياب السلطة المركزية، وقلة الموارد لجأت إلى الغارات، وكان الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص، يحمي الطريق بين دمشق وحمص من الإفرنج ومن العرب، فقد كان وادي الربيعة هدفاً للإفرنج القاطنين في حصن الأكراد^(٢)، وللعرب من خفاجة وغيرهم، فيقطعون الطريق على القوافل فكان له معهم جولات وصولات^(٣).

ونشب صراع بين الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر (٦٣٧-٦٤٧هـ/ ١٢٤٠-١٢٤٩م)^(٤) وأيوبي الشام، فاضطر إلى جلب قوات خوارزمية كانت قد نزحت من شرق آسيا هرباً من جنكيز خان^(٥)، فدخلت الشام عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، ويبدو أن

(١) للمزيد من المعلومات حول الحملة الصليبية السادسة: انظر: سعيد برجوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص ٤٩٩-٥١١.

(٢) وادي الربيعة بين حمص ودمشق. انظر الهامش التالي. أما حصن الأكراد فهو قلعة الحصن وتقع في وادي النصارى. استولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٩م، وفي عام ١١٤٢م، تسلمته منظمة الإستبارة، إلى أن استعاده بيبس عام ١٢٧١م. (فولفغانغ مولر- فينر، المرجع السابق ص ٧٦-٧٧).

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٥٥.

(٤) الملك الصالح نجم الدين: هو أيوب بن محمد الكامل بن أبي بكر العادل بن أيوب، أبو الفتوح نجم الدين. ولد في القاهرة عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م. تولى السلطنة بعد خلع أخيه العادل سنة ٦٣٧هـ. مات بالسل قرب المنصورة عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م. (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٨).

(٥) الخوارزمية: هم عنصر تركي، كانوا تحت قيادة جلال الدين منكوبرتي (٦١٧-٦٢٨هـ)، فلما قتل في معركة مع التتر عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م، فتبعثر الخوارزمية، وانتشروا في الجزيرة الفراتية. وانضم بعضهم إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م، ثم انقلبوا عليه سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، ثم عادوا إليه، وقاموا بغارات عديدة في الشام، واستعادوا القدس من الصليبيين سنة ٦٤٢هـ، ولم يستطع الملك الصالح==

ميول آل فضل من بني ربيعة كانت مع الملك الصالح ، فانضموا إلى الخوارزمية باعتبارهم قوة تابعة له ، واشترك معهم الأمير علي بن حديثة أمير آل فضل ، وهو أخو مانع ، في معركة ضد جيش حلب قرب البيرة^(١) في ربيع الأول سنة ٦٣٨هـ ، وانتصر الحلفاء على الحلبيين ، واستولوا على الغنائم. والغريب في الأمر أن ثمة عربا كانوا مع الحلبيين ، نهبوا حليفهم الجيش الحلبي المهزوم^(٢) .

وكرد فعل على موقف علي بن حديثة ، أمر الحلبيون طاهر بن غنام على سائر العرب ، فانفض علي بن حديثة عن الخوارزمية ، وانضم إلى قومه في مناوشة الخوارزميين ، والقيام بعمليات خاطفة تشبه حرب العصابات لاستنقاذ ما سلبه الغزاة^(٣) .

بعد أن تمكن الملك الصالح من فرض سلطته على الشام من خلال القوات الخوارزمية ، ابتلي بقدوم الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا (١٢٢٦-١٢٧٠م)^(٤) ، وخلال وجود هذه الحملة في مصر توفي الملك الصالح في شعبان ٦٤٧هـ / نوفمبر ١٢٤٩م ، فتسلم الماليك زمام المقاومة ، وأسهم العرب في طرد الصليبيين من مصر ، وكان هذا الانتصار إيذانا بقيام دولة الماليك البحرية^(٥) .

== كبح جماحهم، إلا بعد هزيمتهم أمام عسكر حلب وحصص سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م ومقتل زعيمهم بركة خان. للمزيد: انظر: صبري سليم، الأتراك الخوارزميون في الشرق الأدنى الإسلامي (٦٢٨-٦٤٤) : الأناضول، الجزيرة، الشام).

(١) البيرة : قلعة حصينة على جبل مشرف على الفرات . خضعت للفرنج من سنة ٥١٧هـ إلى سنة ٥٣٩هـ (ابن شداد، الأعلام الخطيرة، ج ١/٣، ص ١٢٠ .

(٢) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥، ص ٢٨٢-٢٨٤ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣، ص ٢٥٠ .

(٣) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٨٨-٢٩١هـ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣، ص ٢٥٧ .

(٤) لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا . ولد في بواسي سنة ١٢١٤م . ابن لويس الثامن، ووريثه . كانت أمه وصية عليه حتى عام ١٢٣٦م . في عهده تأسست جامعة السوربون، ومستشفى الثلاثمائة، وقام بحملتين صليبيتين : السابعة على مصر، والثامنة على تونس وفيها مات عام ١٢٧٠م. Larousse, T.13, p.5594

(٥) عن الحملة الصليبية السابعة ، انظر : جوزيف نسيم يوسف، العدوان الصليبي على مصر.

الفصل الرابع : الأعراب في عهد المماليك:

المبحث الأول : في عهد الظاهر بيبرس

بعد وفاة الملك الصالح ، استقدمت زوجته شجرة الدر^(١) ابنه المعظم توران شاه^(٢) ، وأصبح سلطاناً على مصر مدة تقل عن العام ، وبعد أن قتل انتخب المماليك المعز عز الدين أيبك (٦٤٨-٦٥٥ هـ / ١٢٥٠-١٢٥٨ م)^(٣) ، ليكون أول سلطان مملوكي ، ونجح في توطيد حكمه في مصر^(٤) . واهتم في أوائل حكمه في إخضاع الصحراء وترك نقشاً في بادية الأردن قرب الأزرق شرق الأردن على مدخل قلعة رومانية قديمة وصف نفسه فيه بـ "ملك الصحراء"^(٥) . وحرص أيبك على ولاء أمراء العرب له ، فكان يحسن وفادتهم ، ويهاديهم . ومن وفدوا عليه فرج بن حية من أمراء آل فضل من ربيعة ، فأنزله بدار الضيافة وأقام عنده أياماً ، وقبل مغادرته منحه أيبك مالا وكسوة^(٦) .

إلا أن أيبك أخفق في علاقته مع بني جلدته من المماليك ، فاضطر بعضهم عام ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م إلى الهرب من مصر إلى الشام ، ومن هؤلاء بيبرس الذي توجه إلى حلب

(١) شجرة الدر الصالحية ، أم خليل . لقبها عصمة الدين . جارية من جواري الملك الصالح نجم الدين . ولدت ابنه خليلاً ، فأعتقها ، وتزوجها ، وبعد وفاته أصبح لها دور سياسي . فخطب لها على المنابر ، وضربت السكة باسمها "المستعصمية الصالحية ، ومملكة المسلمين ، والدة خليل أمير المؤمنين" وكانت توقع المراسيم بأمر خليل . قتلها الجوارح عام ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م . (خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ١٥٨) .

(٢) الملك المعظم توران شاه : هو الملك المعظم تورانشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ثامن سلاطين بني أيوب ، وآخرهم . ناب عن والده على حصن كيفا ، وبوع بالسلطنة بعد وفاة أبيه عام ٦٤٧ هـ ، حرّض شجرة الدر عليه ممالك أبيه فقتلوه عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م . وبمقتله زالت الدولة الأيوبية بعد أن عمرت ٨٦ سنة . (خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٠) .

(٣) هو أيبك بن عبدالله الصالح النجمي ، عز الدين التركماني ، أول سلاطين المماليك البحرية في مصر والشام . كان مملوكاً للمصالح نجم الدين أيوب . تولى السلطنة بعد مقتل تورانشاه ، وتزوج شجرة الدر أرملة الملك الصالح . دبر شجرة الدر قتله عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م . (خير الدين الزركلي ، المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٣) .

(٤) عن عهد عز الدين أيبك : انظر : علي إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، ص ٣٦-٤٥ .

(٥) جبور ، البدو والبادية ، ص ٣٨٢-٣٨٣ .

(٦) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

ثم عاد إلى الكرك . وضل عدد منهم الطريق ، فدخلوا في صحراء التيه ، فعثرت عليهم طائفة من العربان حملتهم إلى الكرك^(١) .

ولما قتل أيبك يوم ١٤ ربيع الأول سنة ٦٥٥هـ / أبريل ١٢٥٧م ، تولى بعده المظفر سيف الدين قطز^(٢) تدبير الدولة وصياً على ابنه ، ثم أعلن نفسه سلطاناً على مصر (٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م) ، وفي عهده وصل التتر إلى الشام فاحتلوا حلب في ٩ صفر عام ٦٥٨هـ / ، ودمشق في منتصف جمادى الأولى ، وفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب دمشق (٦٤٨-٦٥٨هـ / ١٢٥٠-١٢٦٠م)^(٣) إلى البرية واستجار ببعض أمراء الأعراب ، فتبعه التتر ، وأغاروا على العرب " فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وسبوا من نسائهم وأبنائهم " ولكن العرب أخذوا بثأرهم ، فاستولوا على خيل التتر منتصف شعبان من العام نفسه وهي ترعى في مروج دمشق ، فاقتفى التتر أثرهم " فلم يدركوا منهم الغبار ، ولا استردوا منهم فرساً ولا حماراً " أما الناصر فقد أسره التتر وأرسلوه إلى ملكهم هولاكو^(٤) . والتقى قطز بالتتار في عين جالوت^(٥) يوم الجمعة

(١) المقرئزي، المواعظ والاعتبار، ج١، ص٢١٣

(٢) المظفر سيف الدين قطز بن عبدالله المعزي ، سيف الدين . ثالث سلاطين المماليك في مصر والشام . كان يملوكاً للمعز أيبك التركماني ، وأصبح أتابكاً على المنصور بن أيبك ، وتسلمن مكانه عام ٦٥٧هـ ، وعينه بيبرس أتابكاً على الجيوش المصرية . هزم المغول في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ . قتله بيبرس ، ودفن في القاهرة سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٥، ص٢٠١) .

(٣) الملك الناصر صاحب دمشق : هو داود بن الملك المعظم عيسى بن محمد بن أيوب، الملك الناصر صلاح الدين، صاحب الكرك . ولد في دمشق عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م . ملك دمشق بعد أبيه عام ٦٢٦هـ ، وبعد أن أخذها منه عمه الأشرف ، عاد إلى الكرك . ثم رحل إلى العراق وأقام في حلة بني مزيد ، وتوفي في دمشق عام ٦٥٨هـ/١٢٥٨م . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٢، ص٣٣٤) .

(٤) هولاكو بن قآن بن جنكيزخان المغولي . مقدم التتر . مات في ربيع الآخر عام ٦٦٤هـ في مراغة ، وخلف سبعة عشر ابناً . تملك عليهم ابنه أبغا .^(١) الذهبي، المصدر السابق ، ج٣، ص٣١٢ .

(٥) عين جالوت بين بيسان وناپلس (ياقوت الحموي ، المصدر السابق، ج٤، ص١٧٧) .

٢٥ رمضان ، فقتل قائدهم كتبغا ^(١) ، وهزم التتار ، وأخذ يكافئ القادة الذين اشتركوا في هذه المعركة ومنهم الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب ، وأقطعه سلمية ^(٢) .

بيبرس وأمرء الأعراب :

عاد بيبرس إلى مصر وقاتل قطز ولكنه اضطر إلى الهرب إلى الشام مرة أخرى ، ثم تصالح معه ، واشترك معه في معركة عين جالوت عام ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م ضد التتار ، وفي طريق عودتهما إلى مصر قام بيبرس بقتله ، وأصبح سلطاناً لمصر سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م . وكان بيبرس خلال فترة هروبه قد لجأ إلى أبي بكر بن علي بن حديثه ^(٣) طالباً منه إهداءه جواداً يكمل عليه رحلته فرفض ابن حديثه ، وكان عيسى بن مهنا أمير آل فضل حاضراً ، فسارع إلى حمايته ، واحتفى به ، وخيره بين جواده . فلما تولى بيبرس السلطنة ، عين عيسى بن مهنا أميراً للعرب ، وظل زعيماً لعرب الشام والحجاز عشرين سنة إلى أن توفي عام ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م ^(٤) .

وكانت إمرة العرب قبل عيسى بن مهنا ، لعلي بن حديثه بن مانع بن حديثه ، الذي كان سفاحاً ، يعاقب قطاع الطرق بشتى أصناف العذاب ، من ذلك "قدر كبيرة منصوبة لا تزال على النار مملوءة ماء والنار توقد تحتها فمتى وقع له مفسد من العرب ألقاه فيها حياً فيسقط لحمه لوقته ، وقتل خلقاً كثيراً بذلك وبغيره من أنواع العذاب ؛ هذا والفساد في أيامه مستمر وأمر العرب لا يزداد إلا شدة" . فلما مات في مستهل عهد الظاهر بيبرس

(١) كتبغا المغولي نوين . مقدم التتار . نائب هولاكو على الشام . قتله أقوش الشمسي . كان قائداً كبيراً عند التتار ، يعتد برأيه هولاكو . (الذهبي، المصدر السابق، ج٣، ص٢٩١) .

(٢) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص٢٠٦-٢٠٧ ؛ (ابن كثير البداية والنهاية، ج١٧، ص٣٩٥-٤٠٢) .

(٣) أبو بكر بن علي بن حديثه بن مانع بن حديثه . كان أميراً على عرب الشام حتى مستهل سلطنة الظاهر بيبرس . انظر : فقرة "بيبرس وأمرء الأعراب" في الفصل الرابع من البحث .

(٤) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص٣١-٣٢ ، ١١٦-١١٨ .

"ولى الملك الظاهر إمرة العرب ابن عمه الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا الذي كان - كما قال ابن الفرات - : "رجلاً ديناً خيراً... فلما ولي أمر العرب أنزل القدر الذي كان لابن عمه وامتنع عن سفك دم إلا بحكم الله تعالى فعلم الله تعالى صدق نيته فأصلح له من أمر العرب ما فسد في أيام غيره وصلحت سيرتهم وقل فسادهم بل كاد يعدم في أيامه وانحسنت مادة أذاهم للقفول وغيرها مع لينه وحسن سياسته وانتفع الإسلام به في مواطن كثيرة مثلاً من الله تعالى ولم يزل على ذلك إلى أن توفي وصلي عليه صلاة الغائب بجامع دمشق في يوم الجمعة ١٩ ربيع الأول ٦٨٣هـ" (١) .

نجح المماليك في ضبط القبائل العربية ، وذلك بربطهم بشيخ مسؤول عنهم ، فخضعت لهم القبائل ، بسبب قوة الدولة التي تمنع الصراعات بين العرب ، ووجود قبيلة قوية كبيرة تستطيع جمع القبائل والبطون والعشائر الأخرى تحت لوائها (٢) . عد القلقشندي ضمن الوظائف الكبرى في الدولة المملوكية " المهمندارية" وهي شؤون الضيافة ، والمسؤول عنها يدعى "المهمندار" ، ومهمته تلقي الرسل الواردين وأمرأء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها (٣) ، ومن ولي هذا المنصب يوسف بن سيف الدولة الحمداني المهمندار (٦٠٢ - ٦٨٠هـ) (٤) ، الذي ذكر أن وفداً من ربيعة قدم على الظاهر بيبرس فأكرمهم وأغدق عليهم : "وما يعلم ما صرف على يدي من بيوت الأموال والخزائن والغلال

(١) ابن الفرات ، تاريخه، ج ٨ ، ص ١٢-١٣ .

(٢) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق، ص ١٨ .

(٣) القلقشندي ، المصدر السابق، ج ٤ ص ٢٢ .

(٤) يوسف بن سيف الدولة الحمداني المهمندار (٦٠٢ - ٦٨٠هـ) ابن زماخ ، هو يوسف بن سيف الدولة بن زماخ ابن بركة بن ثمامة الثعلبي ، أبو المحاسن بدر الدين الحمداني ، كان مهمنداراً وكاتباً ومؤلفاً . ولد عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م ، وتوفي سنة ٦٨٠هـ / ١٢٧٢م تقريباً . (خير الدين الزركلي ، المرجع السابق، ج ٨ ، ص ٢٣٣-٢٣٤) .

للعرب خاصة إلا الله تعالى مما لا يحصر إلا بالجهد، فسبحان من سخر لهم وقسم"^(١). وفي عام ٦٦١هـ وصل إلى القاهرة جماعة من خفاجة وعرب الكرك ، وعيسى بن مهنا ، وأحمد بن حجي فأكرمهم ببيرس^(٢) .

ولكي يضمن ببيرس استتباب الأمن في الصحراء ، وحماية البريد والقوافل ، وضع لأمراء العرب نظاما ، ورسم لهم مسؤوليات ، منها القيام بأعمال أمن الطرق والبريد البري، وإحصاء المواشي ، وإعانة عمال الدولة على جبي الزكاة ، وخصص لهم ديوانا: "ففي ربيع الأول ٦٦١هـ ، ألزم ببيرس قبائل العايد^(٣) وجرم وثعلبة بدرك البلاد ، وقرر عليها البريد، والعداد "وهي زكاة بهيمة الأنعام . ثم زار ببيرس في الكرك يوم الخميس ٢٣ من جمادى الآخرة ٦٦١هـ ، ونظر في أمر بني مهدي وبني عقبة "ورتب عليهم العداد ، وألزمهم بحفظ البلاد ، وأقطعهم بمناشير"^(٤) .

وبهذه السياسة خضعت الصحراء للسلطان ببيرس . ودليلا على أمن الطرق ، وهيبة السلطان يورد ابن تغري بردي أن يهودياً دفن ذهابا بقلعة جعبر قبيل مجيء التتر إليها ، وهرب إلى عامل ببيرس على حماة ، فلما أمن تقدم إلى عامل حماة والتمس منه إرسال من يحفظه حتى يعود بذهبه ، فأطلع عامل حماة ، السلطان ببيرس على القضية ، فأمره بأن يبعث مع اليهودي اثنين يحرسانه ، ولكنهما تركا اليهودي يعبر النهر إلى جعبر ، فخرج عليه عربان وهو يحفر وهموا بقتله والاستيلاء على ذهبه " فأخرج لهم كتاب الملك الظاهر مطلقاً إلى من عساه يقف عليه ، فلما رأوا المرسوم كفوا عنه وساعدوه حتى

(١) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١٤٠ .

(٢) شافع بن علي، حسن المناقب، ص ١٥٩ .

(٣) العايد ، بطن من جذام ، من القحطانية . كانت منازلهم من بلبس إلى العقبة فالكرك ، وكان عليهم حفظ القوافل إلى العقبة. (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٣٩) .

(٤) شافع بن علي، حسن المناقب، ص ١١٥-١٢٨ ، ١١٦ .

استخلص ماله ، ثم توجهوا به إلى حماة وسلموه إلى صاحب حماة ، وأخذوا خطه بذلك" (١) . وكان بيبرس شديداً مع الأمراء العرب الذين يشقون عصا الطاعة ، فقد حدث نزاع بين الأمير زامل بن علي بن حديثه وبين عيسى بن مهنا أمير آل فضل ، وأحمد بن حجي أمير آل مرا ، وغيرهم ، وكثر شغبه فاعتقله السلطان ثم أطلقه وأصلح بينه وبين عيسى بن مهنا وأحمد بن حجي وعيبة وغيرهم وتحالفوا على الصلح . ولكن زامل ادعى أن عيسى ابن مهنا أغار على بيوته ، فلجأ إلى هولاء ، وأخذ يجوس خلال الديار الشامية والحجازية ، ويعيث فساداً ، ثم طلب العفو من السلطان ، فاستدرجه حتى قبض عليه وسجنه وأخاه في القلعة وذلك عام ٦٦٣ هـ (٢) .

يورد المؤرخ ابن عبدالظاهر الذي عاصر أحمد بن حجي وجالسه ، حكاية ضمن حوادث أواخر سنة ٦٦٤ هـ : "في هذه السنة بلغ السلطان أن الأمير أحمد بن حجي ، وهو أكبر عربان آل مرا ... اعتمد أموراً لا ترضي ، منها : أنه خصى بعض التجار ، وأنه نزل على عرادة البلوي فقتله ، وقتل ولده سليمان ولد أخيه ، وطولع السلطان بذلك ، فأجاب : أن هؤلاء في الحجاز ينفصلون وقصد بذلك تطمين الأمير أحمد فاطمأن . وكتب السلطان إلى النجيبى بإمساك سليمان ولد أحمد فأمسك ، ووقعت الحوطة على إقطاع أحمد ، فحضر إلى الباب الشريف ، فأمر بتسليمه لغريمه الذي خصاه ، فراضاه على ثمانية آلاف درهم . وكان السلطان في حصار صفد ، ولما حضر السلطان إلى دمشق وصل وكيل ولد عرادة ، ووكيل ولد عمه ، فاعتقل الأمير أحمد ، وسلم للوكيل ، ليقتص منه بمقتضى الشرع ، ونصبت له خشبة على باب دمشق ، فذكر بسالف خدمة ، وبكى الأتابك والناس فاشتراه السلطان بألف دينار من مال السلطان . ثم ادعى ولد أحمد بقتل ولد أخيه عرادة ، ففدى نفسه بألف دينار ، وتسلم الوكيل المال ، وهذه معدلة جميلة ، وبعد ذلك أحسن إلى الأمير أحمد ، وإلى

(١) ابن تغري بردي ، المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ١٨١ .

(٢) شافع بن علي ، حسن المناقب ، ص ١٥٨ - ٢٠٠ .

ولده ، وأفرج عن إقطاعه" (١) . ويصف شافع بن علي ، أمير العرب أحمد بن حجي بأنه كان: "ذا سلاطة، وقوة نفس" وقال شافع إن السلطان بيبرس لما بلغته جنابة ابن حجي قال: "هؤلاء عرب، ولهم اصطلاح، وهم في البراري، فلا ندخل بينهم" (٢) .

وربما كان أحمد بن حجي قد تصرف مع القبائل الحجازية بصفته مسؤولاً معيناً من قبل بيبرس ، ففي عام ٦٦٧هـ ، استولى على ثلاثة جمال لأشراف المدينة النبوية ، فردها بيبرس عليهم موضحاً لهم أن "أخذ أحمد لجمالهم ما كان بمرسوم ولا يرضي السلطان" (٣) .

ويبدو أن أزمة ثقة سادت العلاقة بين بيبرس وأمراء العرب ، فأخذ يطالبهم بتسليمه بعض أولادهم رهائن ، الأمر الذي جعل كثيراً منهم وعلى رأسهم عيسى بن مهنا ، وربيعة ابن الظاهر بن غنام ، وأبو بكر بن علي يعزمون على الرحيل ، والالتجاء إلى التتر، وذلك عام ٦٧٠هـ . ولما وصل السلطان بيبرس في صفر من هذه السنة إلى حماة وجد عثمان بن مانع، وعمر بن مخلول وجماعة من أكابر العرب، فأكرمهم، وما أظهر لهم شيئاً، وكتب إلى عيسى يطلب منه فرس فلان والفرس الفلاني ، تسكيناً له، وكان عيسى قد كتب إلى السلطان قبل الخروج من مصر ، وطلب الحضور خديعة فخدعه السلطان ، وقال: "لا تحضر حتى أعرفك" وكتب إليه الآن : "إنك طلبت الحضور، وأنا الآن في حماة" فإن أردت فاحضر" فحضر المذكور ، فسأله السلطان عما قالت عنه العربان ، فقال : "نعم والصدق أنجى من الكذب" فرأى له حق الصدق ، وأحسن إليه ، وإلى أمراء العربان ، وأطلق رهائنهم، ورد حقوقهم (٤) .

لقد احترم بيبرس عيسى بن مهنا لصدقه ، وعهد إليه بعمليات عسكرية ، ففي سنة

(١) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر ، ص ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٢) شافع بن علي، المصدر السابق ، ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٣) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه ، ص ٣٥٢ .

(٤) ابن عبد الظاهر، المصدر نفسه، ص ٣٩١-٣٩٣ .

٦٧٠هـ كان التتر قد احتلوا حارم^(١) ، فأرجف أهل الشام ، فأرسل السلطان فرقاً عسكرية لقتالهم، منها فرقة اشترك في قيادتها عيسى بن مهنا سارت صوب حران^(٢) واشتبكت بفرقة تترية وهزمتها وخلصت أهل الشام من شرها^(٣). كما بعث بيبرس في سنة ٦٧٢هـ عيسى بن مهنا على رأس جيش لملاقاة التتر في العراق ، فأغار على عسكر منهم في الأنبار وذلك في ١٨ شعبان من السنة نفسها ، ووصل الخبر إلى أبغا^(٤) ، فنكص على عقبه وانهمز^(٥). أما بالنسبة لربيعة بن الظاهر بن غنام فقد أخلص للسلطان بيبرس ، وأسهم في معارك عدة ، منها الحملة العسكرية على سيس^(٦) سنة ٦٧٣هـ . حيث أبلى هو وجماعته فيها بلاء حسناً ، ومات غرقاً^(٧) ، ويذكر بيبرس المنصوري أن عيسى بن مهنا كان ضمن قواد السلطان بيبرس في هذه الغزوة^(٨) .

العرب وإحياء الخلافة العباسية في القاهرة :

أطلق المغول عام ٦٥٨هـ سراح أحد أبناء بني العباس، كانوا قد أسروه ، خلال هجومهم على بغداد عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م . فلجأ إلى عرب خفاجة، وبقي عندهم يحاول إعادة مجد أجداده، ظناً منه أن الغزو المغولي عارض ويزول، ثم توجه لتلقاء بيبرس ، ومعه خمسون من

(١) حارم : قلعة ومدينة شمال سوريا . تطل على أودية غرب جبل الباشا ، وعلى سهل بحيرة العمق ، وعلى الطريق بين أنطاكية وحلب (فولغانغ، المرجع السابق، ص ٨٤) .

(٢) حران : مدينة بين الرها والرقعة على طريق الشام والروم (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٥) .

(٣) بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية ، ص ٧٣ .

(٤) أبغا ملك التتار ، وابن هولكو . مات بنواحي همذان ، بين العيدين عام ٦٨٠هـ (الذهبي ، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٤٣) .

(٥) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٤٢٦ .

(٦) سيس ، وهي سيسة، بين أنطاكية جنوبا ، وطرسوس ، على عين زربة . قاعدة لليون الأرمني. (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٢٩٧ - ٢٩٨) .

(٧) ابن عبدالظاهر، المصدر السابق، ص ٤٣١ .

(٨) بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٨١ .

قبيلة خفاجة ، فقابل نائب السلطان في دمشق وذكر له أنه أحمد بن الظاهر^(١) ، فأرسل النائب إلى السلطان كتاباً "مضمونه أنه وصل إلى جهة دمشق، في أول الغوطة، رجل ادعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر ، ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب الخمسين فارساً" فأمر السلطان بأن يرسل إلى مصر معزراً مكرماً، فسافر بحماية أمير العرب عيسى بن مهنا الذي أجاره وأكرمه وقابل ببيرس في القاهرة في التاسع من رجب سنة ٦٥٩هـ / ٩ يونيو ١٢٦١م ، وشهد العربان المرافقون على أنه الإمام أحمد بن الإمام الظاهر، وبويع بالخلافة وسمي "بالإمام المستنصر بالله" (٦٥٩-٦٦٠هـ / ١٢٦١م)^(٢) .

ولتحقيق رغبة المستنصر بالله في مقاومة المغول، خرج ببيرس معه إلى الشام وزوده بالرجال والعتاد، وانضم إلى الخليفة أربعمائة فارس من عرب خفاجة والتقى بأبي العباس أحمد^(٣) الذي سبق أن بويع بالخلافة في عهد قطز. ودارت معركة بينهما وبين التتر في المحرم عام ٦٦٠هـ / ديسمبر ١٢٦١م ، أسفرت عن هزيمتهما حول نهر الفرات، ولم ينج سوى الأمير أبي العباس أحمد وخمسين فارساً ، وفقد الخليفة أبو القاسم. ثم قصد أبو العباس

(١) أحمد بن الظاهر ، ابن الإمام الناصر، "بن الإمام المستنصر بالله" (٦٥٩-٦٦٠هـ / ١٢٦١م). المستنصر هو أحمد بن محمد الظاهر بن الناصر المستضيئ ، أبو القاسم العباسي ، أول الخلفاء العباسيين في مصر . قدم إلى القاهرة عام ٦٥٩هـ . بايعه الظاهر ببيرس بالخلافة ولقبه بالمستنصر ، ودامت خلافة بني العباس في مصر اسمية ٢٥٥ عاماً. فقد في معركة بينه وبين التتر، وقيل قتل في هيت، وكان ترتيبه في سلسلة خلفاء بني العباس الثامن والثلاثين . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج١، ص ٢١٩ - ٢٢٠) .

(٢) ابن عبد الظاهر، المصدر السابق، ص ٩٩-١٠٠ : ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١١ : ابن كثير، المصدر السابق، ج ١٧، ص ٤٢٥-٤٢٦ .

(٣) الحاكم بأمر الله، أبو العباس، أحمد بن الأمير الحسن بن أبي بكر، أمير المؤمنين، من ذرية المستظهر بن المقتدي. ولد حوالي عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م . اختفى يوم سقوط بغداد بأيدي المغول سنة ٦٥٦هـ ، وجمع عساكر من العربان استرد بها عانة والأنبار، ولكن التتر هزموه، ففر إلى القاهرة ، وبويع بالخلافة سنة ٦٦١هـ، وعقد السلطنة للظاهر ببيرس ، وضربت السكة باسميهما مدة ثم اقتصر على السلطان، استمر ٤٠ سنة و٤ أشهر و ١٠ أيام، توفي في القاهرة سنة ٧٠١هـ / ١٣٠٢م. (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج١، ص ١١١) .

أحمد ، أمير العرب عيسى بن مهنا ، الذي كاتب بيبرس في أمره ، فأمر السلطان بإحضاره إلى القاهرة ، حيث بويغ بالخلافة في الثاني من المحرم سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م ، ولقب بالحاكم بأمر الله (٦٦١-٧٠١هـ / ١٢٦٢-١٣٠٢م) (١) .

ويبدو أن قبيلة خفاجة ، قد تبنت حركة المقاومة ضد التتر ، فأوت من لجأ إليها من العباسيين ، ثم اتصل أمراؤها ببيبرس ، بغية التحالف معه ضد التتار . وبعد هزيمة الخليفة المستنصر بالله ، وفد على بيبرس طائفة من هذه القبيلة بزعامة خضر بن بدران بن مقلد بن سليمان بن مهارش العبادي " فأنعم الملك الظاهر عليهم ، فكانوا عوناً له على التتر" (٢) . وظلت خفاجة تستقبل المفرج عنهم من بني العباس وترسلهم إلى الشام ، ويحدثنا أبو شامة ، أن التتر أفرجوا عن علي بن الخليفة المستعصم (٣) ، فقصده عرب خفاجة ، فاستضافوه ورافقه رجال منهم إلى دمشق حيث بلغوها يوم الثامن عشر من رمضان سنة ٦٦٥هـ (٤) .

المبحث الثاني : الأعراب في عهد قلاوون :

في ٢٧ من المحرم سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م ، توفي بيبرس بدمشق ، فخلفه ابنه الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد بركة خان (٥) . وفي عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م ، خلعه

(١) عن إحياء الخلافة العباسية في القاهرة : انظر: علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، الباب السابع، ص ٢٤٣-٢٧٣ .

(٢) القلقشندي ، قلائد الجمان، ص ١٢٣ .

(٣) هو ابن الخليفة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر، الذي قتله التتر عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، واستطاع علي أن يلجأ سنة ٦٦٥هـ إلى عرب خفاجة، ولم يحدثنا أبو شامة عن مصيره . (انظر الهامش التالي) .

(٤) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص ٢٤٠ .

(٥) الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد بركة خان : هو محمد بركة ، أبو المعالي ناصر الدين بن الظاهر بيبرس . ولد في القاهرة عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م . ولي بعد أبيه بعهد منه عام ٦٧٦هـ ، خرج عليه المماليك ، ونفوه إلى الكرك ، ولم يلبث أن مات مريضاً عام ٦٧٨هـ / ١٢٨٠م، وسلطنته سنتان وشهران وثمانية أيام . (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٦، ص ٥٢) .

سيف الدين قلاوون^(١) ، وعين أخاه بدرالدين سلامش وأصبح قلاوون وصياً عليه. ثم خلع بدر الدين في رجب من السنة نفسها ، وأصبح المنصور سيف الدين قلاوون سلطاناً على مصر سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م . وقد نفى أبناء بيبرس إلى حصن الكرك ، وفيه مات الملك السعيد ابن بيبرس في ١٣ من ذي القعدة من العام ذاته ، فاختر من في الكرك من أسرته ومؤيديه أخاه نجم الدين خضر ملكاً ولقبوه بالملك المسعود وفرقوا الأموال جلباً لتأييد الناس. "وتسامع بهم العربان وغيرهم يقصدونهم من أطراف البلاد ويجمعون ويحضرون إلى الملك المسعود ويبذلون له الطاعة ويتقربون إليه بالنصيحة فإذا وثق بهم وأنفق فيهم الأموال وحصلوا عليها ويلغوا الغرض مما راموه تسلبوا وفارقوه وعادوا من حيث جاءوا وتفرقت جماعاتهم"^(٢) .

ولم يكن عسكر الكرك هم وحدهم الذين عارضوا وصول قلاوون إلى السلطة ، بل سار في ركبهم الملك الكامل شمس الدين سنقر الأشقر^(٣) نائب الشام ، ورفض الحضور إلى القاهرة لأداء القسم ، ومع ذلك فقد خطب للملك المنصور قلاوون في جوامع الشام . كما أن عرب الشام ، قد ترددوا في تأييد قلاوون ، وانضم سنة ٦٧٩هـ ، إلى سنقر "الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا ملك العرب بالبلاد الشرقية والشامية" ، وفد عليه في دمشق فأجلسه سنقر عن يمينه ، مقدماً على الحاضرين . ثم قدم الأمير شهاب الدين أحمد بن

(١) سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالح النجمي، أبو المعالي، سيف الدين السلطان الملك المنصور . ولد سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م . قبجاقى الأصل، أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ. أخلص لبيبرس، وقام بأمور الدولة بعد وفاته مشرفاً على ابنه العادل سلامش بن الظاهر ، فكان يخطب لهما، وضربت السكة باسميهما، ثم خلع العادل واستلم السلطة سنة ٦٧٨هـ. إلى أن توفي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٥، ص ٢٠٣) .

(٢) ابن الفرات ، المصدر السابق، ج٧، ص ١٦٠ .

(٣) يذكر صاحب التحفة الملوكية أن الملك الكامل شمس الدين سنقر الأشقر، انشق أكثر من مرة على قلاوون، فأرسل إليه عام ٦٨٦هـ حسام الدين طرنطاي ، فحاصره في صهيون، واستلمها منه طواعية في شهر ربيع الأول من العام نفسه، وظل سنقر مقيماً في القلعة في القاهرة إلى وفاة قلاوون، ولما ولي الأشرف انقطعت أخبار الأشقر. (بيبرس المنصورى، التحفة الملوكية، ص ١١٥-١١٦) .

حجي ملك العرب بالبلاد الحجازية فأكرمه سنقر غاية الإكرام . ولما هزم سنقر ، اصطحبه عيسى بن مهنا إلى مضاربه في الرحبة ، ونصب له بيوت الشعر . أما ابن حجي فقد دخل في طاعة قلاوون بعد أن أمنه^(١) .

ويبدو أن عيسى بن مهنا عندما تحالف مع سنقر ، كان يجهل توجهات السلطان الجديد وسياسته نحو أمراء العرب ، فقرر المضي قدما في مساندة سنقر . ففي ١٩ صفر ٦٧٩هـ هزم سنقر على يد الأمير علم الدين الحلبي^(٢) قائد الجيش المصري المرسل من قلاوون لتأديب الأشقر ، فلجأ الأشقر إلى الأمير عيسى بن مهنا أمير العربان الذي لازمه وأنزله ومن معه في بيوته في بركة الرحبة وأقام هو ودوابه فيها^(٣) . ويشير الذهبي الى أن عيسى بن مهنا ، وأحمد بن حجي كانا مع سنقر في هذه المعركة ، بدليل قوله: "في صفر عام ٦٧٩هـ انضم إلى سنقر الأشقر عيسى بن مهنا وأحمد بن حجي بعرب الشام"^(٤) .

فلما بلغ قلاوون عصيان الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا مع الأشقر عزله ، وعين الأمير عثمان بن مانع بن هبة أمير آل فضل على البرية من الرستن إلى الملوحة^(٥) ، والأمير شمس الدين محمد بن أبي بكر شمس الدين أمير آل علي على البرية من الملوحة إلى الشط إلى الفرات ، وعين حسام الدين دراج أميراً على آل عامر من الرستن إلى العقابيات^(٦) وكتبت مناشيرهم وتقاليدهم بذلك . وجاء في نسخة" تقليد الأمير فخر الدين

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٢٩٢-٢٩٦ .

(٢) هو علم الدين سنجر الحلبي الصالحي . حكم دمشق سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م . قاوم بيبرس ، وتلقب بالملك المجاهد، اعتقله بيبرس سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م ، وظل خمس سنين ، ثم ولاه حلب حتى مات في القاهرة عام ٦٩٢هـ/١٢٩٢م . (ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٢/٣، ص ٦٣٩) .

(٣) ابن الفرات ، تاريخه، ج٧، ص ١٧٠ .

(٤) الذهبي، العبر، ج٣، ص ٣٤٠ .

(٥) الرستن : بلدة على نهر العاصي وهي بين حماة وحمص . (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٣، ص ٤٣) و الملوحة : بلد من أعمال حلب . (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٥، ص ١٩٥) .

(٦) العقابيات : لعلها العقاب ، وهو ثنية في جبل يطل على غوطة دمشق من ناحية حمص تقطعه القوافل المغربة إلى دمشق من الشرق . (ياقوت الحموي المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٣) .

عثمان" من إنشاء القاضي فتح الدين بن عبدالظاهر صاحب ديوان الإنشاء الشريف في شهر ربيع الأول من سنة ٦٧٩هـ / يوليو ١٢٨٠م : تفويض الأمير فخر الدين بزعامة "العربان بالشام... حضراً وبدواً عامراً وغامراً ورايحاً وغادياً من الرستن إلى الملوحة والعرب آل فضل وآل علي حيث شاءوا نزلوا بمنزلة المذكور أو بمنزل الأمير شمس الدين محمد بن أبي بكر ... وليعلم أن لكل منهم بيتاً به يعرف أو علمية أصالة بها يعرف ومنزلة يرثها الولد عن الوالد ومشیخة ترجع من ذلك البيت إلى ذلك الواحد. فليحفظ لهم الأنساب وليرع لهم الأسباب وإذا أمروا بأمر من مهام الدولة يتلو عليهم أدخلوا الباب"^(١).

وكدليل على تخوف قلاوون من تقلب العرب ، وقلة خبرته معهم ، فقد اتخذ احتياطات ، أثناء غيابه عن مصر ، من ذلك أنه عندما أراد التوجه إلى الشام أناب الأمير زين الدين كتبغا المنصوري فكتب له القاضي أبو محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري في ذي الحجة ٦٧٩هـ / مارس ١٢٨١م تذكرة من فصول يستأنس بها أثناء غياب السلطان ورد فيها: فصل : العربان في البلاد تحسم موادهم وتؤخذ رهائنهم ويحترز عليهم ويكتب إلى النواب والولاة في الأعمال بالمناداة بأن أحداً لا يحمل منهم سيفاً ولا رمحاً ولا سلاحاً ولا يفسح لأحد منهم في ابتياع ذلك من القاهرة ومن خالف ذلك وحمله في سفر من بلد إلى بلد تستهلك تلك العدة ويؤدب"^(٢).

عرب الشام والتتر :

لم تطل الجفوة بين عيسى بن مهنا وقلاوون ، ففي ذي الحجة عام ٦٧٩هـ / فبراير- مارس ١٢٨١م قدم على قلاوون وهو في الروحاء^(٣) الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا

(١) ابن الفرات ، المصدر السابق، ج٧، ص١٧٧-١٧٨ .

(٢) ابن الفرات ، المصدر السابق، ج٧، ص١٩٦-٢٠٠ .

(٣) الروحاء : لعلها روحا من قرى الرجة . (ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج ٣ ، ص٧٦) .

تائباً فنهض إليه قلاوون وتلقاه وأكرمه وبألف في إكرامه وأحسن إليه^(١). وقد أثر هذا الصنيع في نفس عيسى ، وأخلص للسلطان وكان سبباً في إنتصار المسلمين في معركة حمص كما سنرى . عندما بدأت جحافل التتر تأخذ طريقها إلى الشام ، قرر قلاوون صدها ، واستنفر الناس ، فقدم عليه "أحمد بن حجي ومعه بشر كثير من الأعراب" . وكانت مضارب العرب هدفاً عسكرياً للتتر فأغاروا على طائفة منهم في الرحبة أواخر جمادى الآخرة عام ٦٨٠ هـ . وفي يوم الخميس ١٤ رجب ٦٨٠ هـ / ٣٠ أكتوبر ١٢٨١ م ، كانت وقعة حمص قرب قبر خالد بن الوليد رضي الله عنه ، بين المغول بقيادة منكوتمر بن هولأكو^(٢) ، وبين جيش قلاوون ، وفي بداية الأمر اضطربت ميمنة المسلمين ، وانكسرت الميسرة مع طرف القلب وصمد السلطان واستمرت الحرب من أول النهار إلى اصفرار الشمس ، ثم رتب المسلمون صفوفهم ، وطعنوا قائد التتر " وطلع من جهة الشرق عيسى بن مهنا عرضاً ، فاستحكمت هزيمتهم وركب المسلمون أقفيتهم" . يقول ابن كثير : "وكاد المسلمون أن ينهزموا ، لولا الله ثم ثبات السلطان ، وتصدي الأمير عيسى بن مهنا"^(٣).

وعن إسهام آل مرا من بني ربيعة في هذه المعركة الفاصلة قال الحمداني: "ولقد رأيتهم في الوقائع مع من غلب إلا نوبة حمص . فإنهم أثروا أثراً حسناً، وعملوا في التتر عملاً جيداً، وقاتلوا قتالاً شديداً . وربما تقدموا الجيش في اللقاء ، فكانوا سبب الكرة،" أي الانتصار. وحكى الشيخ شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي : أنه رأى آل مرا حين جاءوا تلك الكرة . وقال: كنت جالساً على سطح باب الإسطبل السلطاني بدمشق وقد أقبلوا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح على الخيل المسومة ، والجياذ المطهمة ، وعليهم الكزغندات الحمر من الأطلس المعدني ، والديباج الرومي ، وعلى رؤوسهم البيض ، مقلدين

(١) ابن الفرات ، المصدر السابق، ج٧، ص ٢٠٠ .

(٢) منكوتمر هو أخو أبغا ، كان نصرانياً ، هزم في حمص ، ومات في قرية تل خنزير في المحرم سنة ٦٨١ هـ.

(الذهبي ، المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٤٩) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج٧١، ص ٥٧٣-٥٧٥ : الذهبي ، العبر ، ج٣ ، ص ٣٤٣ .

بالسيوف، وبأيديهم الرماح كأنهم صقور على صقور، وأمامهم العبيد تميل على الركائب، ويرقصون بتراقص المهاري، وبأيديهم الجنايب، التي ظلت إليهم عيون الملوك صورا، ووراءهم الظعائن والحمول، وكانت معهم مغنية لهم تعرف بالحضرمية وكانت لها سمعة طائرة في زمانها، ورأيتها سافرة من اليهودج وهي تغني أبيات من قصيدة للنايعة الجعدي:

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة ليالي لاقينا جذاما وحميرا
ولما لقينا عصبه تغليبية يقودون جردا للمنية ضمرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا
سقيناهم كأسا سقونا بمثله ولكنهم كانوا على الموت أصبرا^(١).

بعد هذه الإسهامات المؤثرة، فقد قلاوون أميرين من أمراء العرب مهمين: الأول أحمد بن حجي الذي قال عنه ابن كثير: "وفي خامس رجب [٦٨٢هـ] توفي الأمير الكبير ملك عرب آل مرا أحمد بن حجي بمدينة بصرى، وصلي عليه بدمشق صلاة الغائب"^(٢)، والثاني: عيسى بن مهنا الذي قال عنه الذهبي "ملك العرب بالشام، رئيس آل فضل، مات في ربيع الأول [٦٨٣هـ]. كانت له المنزلة العالية عند السلطان."^(٣). وبعد وفاة عيسى "فوض قلاوون إمرة العرب لابنه حسام الدين مهنا"^(٤) وزاده السلطان إقطاعاً وبسط

(١) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١٤١-١٤٢.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٧، ص ٥٩٢. قارن بين انطباع ابن كثير وبين ما أورده ابن تغري بردي: "أحمد ابن حجي بن بريد الأعرابي، أمير آل مرا كان أحد الأبطال الأجواد، كان يصف القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان بابن عمه، وكانت بينهما مهادة وصحبة، وكان غير مشكور السيرة. توفي سنة ٦٨٢هـ [١٢٨٣م]" ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(٣) الذهبي، المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٥٣.

(٤) حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع الطائي، حسام الدين، أمير آل فضل، ويلقب بأمر بادية الشام وصاحب تدمر وسلطان العرب. انضم إليه أحياء من زبيد وكتب وهذيل ومذحج. ولاء قلاوون الإمارة بعد موت أبيه عام ٦٨٣هـ، قبض عليه الأشرف عام ٦٩٢هـ، وعاد إلى الإمارة عام ٦٩٤هـ، عزله الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٢هـ، وعين مكانه أخاه فضل، ثم عاد مهنا أميراً عام ٧١٧هـ، ثم طرده الناصر عام ٧٢٠هـ. مات قرب السلمية عام ٧٣٥هـ / ١٣٣٥م. (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٧، ص ٣١٦-٣١٧).

يده فسلك سبيل والده في الخير والكرم والإحسان وإطاعة العرب كافة وعظم شأنه عند الملوك وغيرهم" (١) .

ويذكر ابن عبدالظاهر أنه "في سنة ٦٨٤هـ أغار آل فضل وجماعة من آل مرا على بلاد العدو المخذول... وغنموا أموالاً كثيرة لا تحصى من خيول وأموال وأمتعة ، وكانت غنيمة عظيمة . وأغار الأمير هبة بن الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا على بلد الشرق من جهة آمد ونصيبين" (٢) وكان معه حشود كثيرة من أصحابه ومن حشود الرحبة وغنموا ما يزيد على ثلاثين ألف رأس من الأغنام وجملة من الأبقار وغير ذلك وخرجوا سالمين غافين وارتمت بلاد الكفار بهذه الإغارة" (٣) .

وإذا أخل العربان بالأمن ، أو اعتدى أحدهم على الآخر فإن السلطان يتدخل ويطبق فيهم شرع الله . في سنة ٦٨٤هـ كان جماعة من كبراء العربان الثعالبة منهم ابن أميرهم فارس الدين رميح مجتمعين ، فقام رجل اسمه عسيلة وقتل ابن الأمير ، وهرب إلى العراق ، فاهتم قلاوون بالأمر ، وسير نواب الرحبة للقبض عليه ، فجيء به وقتل قصاصاً قرب باب النصر.. (٤) .

يحدثنا ابن فضل الله العمري أن مهنا بن عيسى حضر مجلس القائد طرنطاي المنصوري (٥)

(١) ابن الفرات ، المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٨

(٢) آمد : مدينة في ديار بكر . كانت قاعدة مملكة الملك مسعود بن محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق ابن أكسب . ياقوت الحموي ، المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٦-٥٧ .

أما نصيبين فهي من مدن الجزيرة ، قرب جبل ماردين . ينبع ماؤها من جبل بالوسا ، وتمتاز بالخصرة ، وفيها دير كبير . (الكرخي ، مسالك الممالك ، ص ٧٣)

(٣) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام ، ص ١١١-١١٢ .

(٤) ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام ، ص ١٢٢ .

(٥) الأمير حسام الدين طرنطاي العزيزي . كان نائب السلطنة بمصر . تولى عام ٦٧٨هـ ، وقتله الأشرف خليل يوم ١٥ من ذي القعدة عام ٦٨٩هـ / ١٩ نوفمبر ١٢٩٠م . (ابن عبدالظاهر ، تشريف الأيام ، ص ٢٤٨ ، ٢٠ - ٢٨٥) .

وهو مخيم في الخربة ، وكان أحمد بن حجي حاضراً ، فادعى بأن آل فضل استولت على ألف بعير لآل مرا ، واحتد في طلبه ، وارتفع صوته ، ومهنا صامت ، فالتفت إليه طرنطاي قائلاً : "ما تقول يا ملك العرب؟ فقال: وما أقول ؟ نعطيهم ما طلبوا، هم أولاد عمنا، وإن كانت لهم عندنا هذه البعيرات أعطيناهم حقهم، وإن كان ما لهم شيء فما هو كثير إذا أعطينا بني عمنا من مالنا" ولكن أحمد طالب مهنا بكلمة ملزمة فقال له مهنا: "يا أحمد إن كان كلامك عليك هيناً فكلامي علي ما هو هين . وهذه الأباعر أقل من أن يحصل فيها كلام وأنا معطيك إياها" وقام ، فقال طرنطاي : هكذا يكون الأمير^(١).

بعد أن توفي قلاوون سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م ، توترت علاقة أمير العرب مهنا بن عيسى بالسلطان الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٣هـ / ١٢٩٠-١٢٩٤م)^(٢) ، فقد عاثت خيل الأشرف بزروع سرمين^(٣) إقطاع مهنا ، فاشتكى إلى السلطان ، فوبخه على هذا التضجر من جيش خرج "لإذلال العدو وقص جناح الكفر" وأغلظ عليه بالقول . ولما فتح الأشرف قلعة الروم^(٤) ، جلس وحوله جماعة من بني مهدي يضحكونه ، فقدم على القلعة مهنا ، فأمر بمد الجسر المتحرك ليدخل إلى القلعة ، ثم حرك الجسر فسقط الأمير ، وتبللت ثيابه ، فضحك عليه السلطان وبنو مهدي ، فأسرها مهنا في نفسه ، وعندما نزل الأشرف في حماة بعث إليه مهنا خيلاً وجمالاً فقبلها السلطان وخلع على رسوله ، وبعث بخلعة سنية

(١) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١١٨-١١٩ .

(٢) هو خليل بن قلاوون الصالحى . الملك الأشرف . ولد عام ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م . ولي السلطنة بعد موت أبيه عام ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م ، يكفيه فخراً أنه استرد عكا وقضى على الوجود الصليبي عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م . قتله

بعض المماليك عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٤م (خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٢١).

(٣) سرمين من أعمال حلب . استولى عليها الفرنج سنة ٤٩٩هـ (ابن الأثير، المصدر السابق ج ١٠، ص ٤٠٨).

(٤) قلعة الروم في الركن الشمالي الشرقي للجزيرة الفراتية ، شمال البيرة في أعالي الفرات . انظر : (سهيل زكار،

الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٨٨) .

فلبسها مهنا إظهاراً للطاعة ، ودخل البرية . أما الأشرف فقد عاد إلى مصر وفي نيته أن يقبض على مهنا. وعندما عاد الأشرف إلى الشام وخرج من دمشق للصيد ، أعد مهنا وليمة للسلطان بمضاريه قرب السلمية في رجب سنة ٦٩٢هـ / ١٣٤١م. وبعدما فرغ السلطان من الطعام أمر بترحيل مهنا وجماعة من أهل وقومه إلى القاهرة حيث حبسوا في القلعة ، وظل مهنا ورفاقه في السجن حتى وفاة الأشرف سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٤م^(١) .

الخاتمة :

بعد هذا العرض التحليلي لموقف أعراب الشام وفلسطين ، يتبين أنهم كانوا مع السلطة المركزية إذا وجدوا منها تفهما لأوضاعهم ، ومعها أيضاً إذا تعرضت البلاد الى غزو خارجي. أما إذا أساء السلاطين معاملتهم لأمراء العرب فقد يتغير الموقف الى إجراء مضاد ، يصل أحيانا الى التحالف مع عدو خارجي صليبي أو مغولي.

ولحظنا أن الغالب في العلاقة بين السلاطين وأمراء العرب كان الثقة مقابل المنصب، والاحترام مقابل الالتزام. ولنا أن نتساءل كيف كانت أحوال الدول المتعاقبة على مصر والشام في مجالات البريد، والجيش، وأمن الطرق ، لولا هذا العنصر الحيوي المتمثل بعرب الصحراء.

ناحية أخرى يجب الإشارة إليها والإشادة بها ، ألا وهي حرص عرب البادية على إحياء الخلافة العباسية بعد سقوطها على يد التتر، فهم الذين رحلوا من نجا من أبناء الخلفاء إلى مصر ، وأثبتوا أمام السلاطين هويتهم ، مما ترتب عليه استمرار الخلافة العباسية في مصر - ولو صوريا - إلى أوائل القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي . وإلى الله ترجع الأمور.

(١) ابن فضل الله العمري، المصدر السابق، ص ١١٩-١٢١ .

المصادر والمراجع :

أولا : المصادر :

- (١) ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي.. الشيباني ٥٥٥-٦٣٠هـ/ ١١٦٠-١٢٣٢م).
الكامل في التاريخ -٠ بيروت : دار صادر ؛ ودار بيروت، ١٩٦٥م.
- (٢ ، ٣) ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ٨١٣-٨٧٤هـ).
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ؛ تحقيق محمد محمد أمين -٠ القاهرة :
الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٤م
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية.د.ت.
- (٤) ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد .. الكتاني ٥٤٠-٦١٤هـ / ١١٤٥-١٢١٧م).
الرحلة ؛ نشر محمد مصطفى زيادة -٠ بيروت : دار الكتاب اللبناني ؛ -٠ القاهرة :
دار الكتاب المصري . د.ت.
- (٥) ابن الجوزي (أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد ت. ٥٩٧هـ) . المنتظم في تاريخ
الملوك والأمم ؛ تحقيق محمد عطا و مصطفى عطا -٠ ط ١ -٠ بيروت : دار الكتب
العلمية ، ١٩٩٢م.
- (٦) ابن حوقل (أبو القاسم ابن حوقل النصيبي.ت. ٣٦٧هـ) . كتاب صورة الأرض -٠
ليدن : مطبعة بريل ، ١٩٣٨م.
- (٧) ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد .. الحضرمي المغربي . ت . ٨٠٨هـ) . العبر وديوان
الابتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر -٠
بيروت : دار الكتاب العربي . د.ت.
- (٨) ابن شداد (بهاء الدين. ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م). النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية؛
تقديم محمد درويش -٠ دمشق : نشر وزارة الثقافة ، ١٩٧٩م.

- (٩) ابن شداد (عز الدين بن محمد بن علي بن إبراهيم. ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) . الأعلام
الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ؛ تحقيق يحيى عبارة -٠ - دمشق : وزارة
الثقافة ، ١٩٧٨م.
- (١٠ ، ١١) ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد ٥٨٨-٦٦٠هـ) :
- بغية الطلب في تاريخ حلب ؛ تحقيق سهيل زكار -٠ - ط ١ -٠ - بيروت : دار الفكر ،
١٩٨٨م.
- زبدة الحلب من تاريخ حلب ؛ تحقيق سامي الدهان -٠ - دمشق : المعهد الفرنسي ،
١٩٥١م
- (١٢ ، ١٣) ابن عبدالظاهر (محيى الدين ٦٢٠-٦٩٢هـ/١٢٢٣-١٢٩٢م) :
- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (٦٧٨-٦٨٩هـ) ؛ تحقيق مراد
كامل -٠ - ط ١ -٠ - القاهرة : وزارة الثقافة ، ١٩٦١م
- الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر؛ تحقيق عبدالعزيز الخويطر -٠ - ط ١ -٠ -
الرياض ، ١٩٧٦م.
- (١٤) ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم ٧٣٥-٨٠٧هـ/١٣٣٤-١٤٠٥م) .
تاريخ ابن الفرات : الجزء السابع ؛ تحقيق قسطنطين زريق، الجزء الثامن ؛ تحقيق
قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين. د. م. ، د. ت.
- (١٥ ، ١٦) ابن فضل الله العمري (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى ٧٠٠-
٧٤٩هـ/١٣٠١-١٣٤٩م) :
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار "قبائل العرب في القرنين السابع والثامن
الهجريين" ؛ تحقيق دوروتيا كرافولسكي -٠ - ط ١ -٠ - بيروت : المركز الإسلامي
للبحوث ، ١٩٨٥م .

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" (دولة المماليك الأولى) ؛ تحقيق دوروتيا كرافولسكي . - ط ١ . - بيروت : المركز الإسلامي للبحوث ، ١٩٨٦م .
- (١٧) ابن قاضي شهبه (بدر الدين أبو الفضل محمد بن تقي الدين ٧٩٨-٨٧٤هـ) .
الكواكب الدرية في السيرة النورية ؛ تحقيق محمود زايد . - ط ١ . - بيروت : دار الكتاب الجديد ، ١٩٧١م .
- (١٨) ابن القلاسي (أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي ٤٧٠-٥٥٥هـ/ ١٠٧٧-١١٦٠م) . تاريخ دمشق ؛ تحقيق سهيل زكار . - ط ١ . - دمشق : دار حسان ، ١٩٨٣ .
- (١٩) ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ٧٠١-٧٧٤هـ) . البداية والنهاية ؛ تحقيق عبدالله التركي . - ط ١ . - القاهرة : دار هجر ، ١٩٩٨م .
- (٢٠) ابن منظور (محمد بن مكرم ٦٣٠-٧١١هـ) . لسان العرب . - بيروت : دار صادر . د.ت .
- (٢١) ابن منقذ (أسامة بن مرشد بن علي ٤٨٨-٥٨٤هـ) . كتاب الاعتبار ؛ تحقيق قاسم السامرائي . - الرياض : دار الأصاله ، ١٩٨٧م .
- (٢٢) ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم .ت. ٦٩٧هـ) . مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ؛ تحقيق جمال الدين الشيال ، د.م ، د.ت .
- (٢٣) أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل ٥٩٦-٦٦٥هـ) .
الروضتين في أخبار الدولتين . - بيروت : دار الجليل . د.ت .
- (٢٤) أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل . ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م) . المختصر في أخبار البشر . - ط ١ . - القاهرة : المطبعة الحسينية ، ١٣٢٥هـ
- (٢٥) البشاري (محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي ٣٣٦-٣٧٥هـ) .
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . - لندن : مطبعة بريل ، ١٩٠٩م .

- (٢٦) بيبرس المنصوري . التحفة الملوكية في الدولة التركية (تاريخ دولة المماليك البحرية من ٦٤٨-٧١١هـ) ؛ نشر عبد الحميد صالح حمدان . - ط ١ - . القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٨٧م .
- (٢٧) الحميري (محمد بن عبد المنعم الصنهاجي ت. ٧٢٧هـ) . الروض المعطار في خبر الأقطار ؛ تحقيق إحسان عباس . - ط ٢ - . مكتبة لبنان ، ١٩٨٤م .
- (٢٨) الحنبلي (أبو البركات أحمد بن إبراهيم . ٨٠٠-٨٧٦هـ) . شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ؛ تحقيق ناظم رشيد . - بغداد : وزارة الثقافة والفنون ، ١٩٧٨م .
- (٢٩) الذهبي (الحافظ شمس الدين أو عبدالله محمد بن أحمد ٦٧٣-٧٤٨هـ) . العبر في خبر من غبر ؛ تحقيق محمد زغلول . - بيروت : دار الكتب العلمية . د.ت .
- (٣٠) شافع بن علي بن عباس (ناصر الدين . الكنانى ٦٤٩ - ٧٣٠هـ/ ١٢٥٢ - ١٣٣٠م) ، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ؛ تحقيق عبدالعزيز الخويطر . - ط ٢ - . الرياض ، ١٩٨٩م .
- (٣١) العماد الكاتب الأصفهاني (أبو عبدالله محمد بن صفى الدين ٥١٩-٥٩٧هـ) . الفتح القسي في الفتح القدسي ؛ تحقيق محمد صبح ، د.م.د.ت .
- (٣٢ ، ٣٣) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ت. ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) :
- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ؛ تعليق محمد شمس الدين . - ط ١ - . بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٧م .
- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ؛ تحقيق إبراهيم الأبياري . - ط ٢ - . القاهرة : دار الكتب الإسلامية ، ١٩٨٢م .
- (٣٤ ، ٣٥) المقرئزي (أحمد بن علي بن عبدالقادر بن محمد ت. ٨٤٥هـ) :
- البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب . - القاهرة : المطبعة المحمودية ، ١٣٥٦هـ .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئية - القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، د.ت.
- (٣٦) المؤرخ المجهول . الحرب الصليبية الثالثة ؛ ترجمة حسن حبشي - القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب ، ٢٠٠٠ م .
- (٣٧) العظمي (محمد بن علي ٤٨٢ - ٥٥٦هـ / ١٠٩٠-١١٦١م) . تاريخ حلب ؛ تحقيق إبراهيم زعرور - دمشق ، ١٩٨٤ م .
- (٣٨) الفتح بن علي البنداري . سنا البرق الشامي (٥٦٢-٥٨٣هـ / ١١٦٦-١١٨٧م) ؛ اختصار من كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني ؛ تحقيق فتحة النبراوي - ط ٢ - الرياض : دار اللواء ، ١٩٨٩ م .
- (٣٩) ياقوت الحموي (ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) . معجم البلدان - بيروت : دار إحياء التراث العربي . د.ت.
- ثانياً: المراجع :
- أ - العربية :
- (١) أحمد وصفي زكي . عشائر الشام - ط ٢ - بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٣ م .
- (٢) جبرائيل جبوري . البدو والبادية - ط ١ - بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٨ م .
- (٣) جوزيف نسيم يوسف . العدوان الصليبي على مصر - القاهرة : دار النهضة العربية ، ١٩٨١ م .
- (٤) حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - ط ١ - القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧ م .
- (٤) خير الدين الزركلي . الأعلام - ط ١ - بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠ م .
- (٥) سعيد برجوي . الحروب الصليبية في المشرق - ط ١ - بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٤ .

- (٦) عبدالله سعيد الغامدي . صلاح الدين والصليبيون "استرداد بيت المقدس" - . مكة : مكتبة الفيصلية ، ١٩٨٥م
- (٧) علي إبراهيم حسن . تاريخ الممالك البحرية - . ط ٣ - . القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧م .
- (٨) علي السيد علي . القدس في العصر المملوكي - . ط ١ - . القاهرة : دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٦م
- (٩) فرحان أحمد سعيد . آل ربيعة الطائيون - . ط ١ - . بيروت : الدار العربية للموسوعة ، ١٩٨٣م .
- (١٠) محمد بيومي مهران . بلاد الشام - . الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٠م .
- (١١) محمود رزق محمود . العلاقات بين أرناط حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي . رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٣م .
- (١٢) محمود سعيد عمران . الحملة الصليبية الخامسة - . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨٥م .
- (١٣) محمود محمد الحويري . الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين - . القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٩م .
- (١٤) الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي . إعداد عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - . الرياض ، ١٤١٩هـ .
- (١٥) نقولا زيادة . جغرافية الشام عند جغرافي القرن الرابع الهجري (أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام سنة ١٩٧٤م ، ص ١٣٩-١٧٩) - . بيروت : الدار المتحدة ، ١٩٧٤م .
- ب - الأجنبية :
- ١ - المعربة :
- (١) رنسيما (ستيفن) . تاريخ الحروب الصليبية : ترجمة السيد الباز العريني - . ط ١ - . بيروت : دار الثقافة ، ١٩٦٨م .

- (٢) فولفغانغ مولر- فينر . القلاع أيام الحروب الصليبية ؛ ترجمة محمد وليد جلاذ - .
دمشق : مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٢م.

٢ - الفرنسية :

- 1 - Demurger(Alain), Vie et mort de l'ordre du Temple, Seuil, Paris,1985.
- 2 - Elisseeff (Nikita), Nour ad-Din,Institut Francais de Damas, DamasK1967.
- 3-4- Grousset,
Histoire des croisades.Tallandier,Paris,1981.
Histoire du Levant,Payot,1946.
- 5 - Michaud, Histoire des croisades,Furne,Paris,1841.
- 6- Prawer (Joshua), Histoire du royaume latin de Jerusalem, C.N.R.S, Paris, 1975.
- 7 - Rey (E.), Les Colonies Franques de Syrie, XII-XIII.S., Alph. Picard, Paris, 1883.